من علوم القرآن
وتحليل نصوصه

دكتور عبد القادر حسين
أستاذ البلاغة بجامعتي الأزهر وقطر

١٩٨٧

دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع
الدوحة - قطر

الناشر
دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع
تلفون : ٨٦٠٥٣٥ - ص.ب ٢٣٦٤
الدوحة - قطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبِهِ نَستعين

مقدّمة

لا أزعم أني في هذا الكتاب قد فصلت القول في جميع المباحث القرآنية ، فإن أفقها رحيب ، ومداها بعيد ، وإنما اخترت بعضها من التي تحمل طابعاً خاصاً ، ولها دلالة معينة ، توجب على الباحث أن يلقي عليها مزيداً من الأضواء الكاشفة ويقدمها للقارىء في يسر ، لذلك لم أعمد إلى الاستقصاء بقدر ما أردت أن أقترب بها إلى قلوب الذين يودون لو يعرفون لمحة نافعة عن القرآن وإعجازه وصوره .

فثمة مسائل هامة يثيرها المشتغلون بعلوم القرآن من حين لآخر ، ويجدون في تناولها والنظر إليها أهمية بالغة ، فالقرآن كتاب مقدس تتعلق به قلوب الملايين من البشر ، ويعنيهم أن يقفوا على ما توصل إليه العلماء في كثير من المسائل التي تشغل أذهانهم ، مثل ترجمة القرآن والكلمات الأعجمية في القرآن ، والشعر في القرآن والأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن وغير ذلك من مباحثه العديدة .

ولا ريب أن القرآن قد ملك على العلماء القدامى مشاعرهم ، فعكفوا على دراسته ، وأحاطوه بعناية فائقة لم يحط بها كتاب سابق أو لاحق ، وما تركوا فيه شيئاً إلا درسوه وفحصوه ، وقطعوا فيه برأي ، وأيدوه بحجة فكنا

نستضيء بآرائهم ، ونهتدي بأقوالهم . غير أن تصانيفهم بها كثير من المذاهب والآراء ، وعديد من المدارس والاتجاهات ، حتى ضلت بين طياتها الفائدة التي كان ينبغي أن يستخلصها القارىء وهو يرغب في التيسير ، ويقنع بالإيجاز ، فبذلت الجهد لأقدم هذه المباحث الشائكة في أسلوب سهل وعبارة طيعة ؛ لأن غايتنا أن نكشف عن وجه القرآن الساحر ، ونجلي نوره الباهر ، فيبدو أمام الأبصار ساطعاً جلياً .

أما المحدثون فقد أخذوا يضيفون إلى وجوه الاعجاز المعروفة صوراً جديدة من الإعجاز : مثل الإعجاز العددي والإعجاز العلمي ، وقد عرضنا لبعض وجوه الإعجاز عند القدامى ، كما عرضنا لإضافات المحدثين بشيء من التفسير والتحليل والمناقشة ؛ لنعطي فكرة شاملة عن أهم هذه الوجوه وما ينبغي أن نأخذ أو ندع منها .

وأبرز جوانب الإعجاز في القرآن هو الجانب البياني الذي يتمثل في الصورة بصفة خاصة ، ويدل على ما في القرآن من سحر وحلاوة تتسلل إلى النفوس فتهتز لها القلوب ؛ وتخشع لها القلوب ، وينفعل بها الوجدان ؛ لذلك آثرت العناية بالصورة البيانية ، وتذوق الجمال فيها ، وما تتركه من أثر نفسي أو تلقيه من شحنة إنفعالية ، وهو مطلب يعز على التعبير المباشر أن يتعمق أغواره ، أو يلمس أطرافه ، والصورة البيانية على اختلاف أنواعها غزيرة في القرآن الكريم ، ونرجو أن نجلوها ونبين أسرارها وجمالها وقيمتها ، عسى أن ندرك وجهاً واحداً يسيراً من الوجوه العديدة لإعجاز القرآن ، ولذلك كان من الضروري تحليل بعض نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية والبلاغية حتى يمكن الوقوف على إعجازه .

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل ؟

أول أكتوبر ١٩٨٥

عبدالقادر حسين

الباب الأول

إعجاز القرآن

« فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه »

حديث حسن غريب

المعـــجزة

للرسول عليه السلام كثير من المعجـزات التي تدل على صـدقه ، وأنـه مرسل من قبل الله تعالى ، فالمعجزة مختصة بالنبي دائمـاً . وتقترن بـالتحدي ومن ثم لا يمكن تحصيلها بالجهد أو الاكتساب .

وتفترق المعجزة عن الكرامة[1] إذ أن الأخيرة موقوفة على الوليّ ، وعليه أن يحرص على كتمانها . والتستر عليها ، فإن أراد إظهـارها وإشـاعتها بـطلت وزالت ، والولي في بعض الأوقات يعجز عن إظهار كرامته .

وللأنبياء معجزات ظهرت على أيـدي كثير منهم ، ومعجـزة النبي محمد تفوق ما ظهرت على أيدّيهم سواء من حيث العدد أو من حيث الأهمية .

فإذا كان الله أكرم موسى ففلق له البحر في الأرض .

فقد أكرم الله محمداً ففلق له القمر في السماء .

وفجر لموسى الماء من الحجر ، ففجّر لمحمد أصابعه عيوناً .

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي ١ / ٦٦ ط ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، فقد أكرم محمداً فكان الغمام يظلله .

وأكرم موسى باليد البيضاء ، فقد أكرم محمداً بالقرآن .

وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرمي الرسول بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً .

وسبحت الجبال مع داوود ، وسبّحت الأحجار في يد الرسول وأصحابه .

وداوود إذا أمسك الحديد لان ، ومحمد حين مسح الشاة الجرباء درَّت .

وأكرم الله داوود بالطير المحشورة ، وأكرم محمداً بالبراق .

وأكرم عيسى بإحياء الموتى . وأكرم محمداً بمثل ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته .

وأكرم عيسى فأبرأ الأكمه والأبرص . وقد روي أن امرأة معاذ بن عفراء أتت وهي برصاء، فمسح عليها بغصن فأذهب الله البرص عنها ، وسقطت حدقة رجل في غزوة أحد فرفعها الرسول وردها إلى مكانها .

وانقاد الجن لسليمان ، وانقادوا أيضاً للرسول .

ومعجزات النبي محمد أكثر من أن تحصى . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكرناه ، حنين الجذع ، وكلام الذئب ؛ وجعل قليل الطعام كثيراً ، ونبع الماء من بين أصابعه فروى منه جيش عظيم[1] كل ذلك على مشهد من الناس

(١) تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب ٣٠ / ١٢٥ ، ١٢٦ الطبعة الأولى ، والتمهيد للباقلاني ١١٤ ، ١١٥ نكت الانتصار للباقلاني ٢٩٣ ، الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٣ / ١٧ .

وأسماعهم ، فلم ينكر أحد شيئاً مما رآه أو سمعه رغم أن ذلك ليس في طاقة البشر أو مقدرتهم ، ومجيء تلك الأحداث متعذر وممتنع عن الخلق . وليس في مقدور أحد سوى الله جل شأنه .

وأفضل معجزات الرسول وأجلّها شأناً هي معجزة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأبلغها ، فقد سحر القرآن العرب منذ استمعوا إليه في اللحظة الأولى ، سواء من شرح الله منهم صدره للإسلام وأنار بصيرته ، أو من طبع على قلبه وجعل على بصره غشاوة ، فالوليد بن المغيرة قال عن القرآن ﴿ إنْ هَـذَا إلاّ سِحْرٌ يؤْثَر ﴾ المدثر ٢٤ . والقساوسة والرهبان ﴿ إذَا سَمِعُوا مَا أُنْـزِلَ إلى الرّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تفيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ المائدة ٨٣ . فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرّك مشاعره ، ويهتز قلبه طرباً ، أو يقشعر بدنه خوفاً ، أو ينعصر فؤاده رجاء ، لما فيه من جمال في الأسلوب ، وقوة في العبارة ، وموسيقية في الإيقاع ، والله يصف كتابه بأنه ﴿ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهْم وقُلُوبُهْم إلى ذِكْرِ اللّهِ ﴾ الزمر ٢٣ .

فروعة القرآن تدرك ولا توصف شأن النغم الحلو ، والوزن المستقيم ، فيتسلل إلى أغوار النفس ، ويستقر في أعماقها . ولكن العرب كما يصفهم القرآن ﴿ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ الزخرف ٥٨ ، وأعداء ألدّاء ﴿ وتُنذر به قوماً لُدًّا ﴾ مريم ٩٧ . فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك تارة ، فزعم بعضهم أنه في متناول أيديهم ، وأنهم قادرون عليه ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ الأنفال ٣١ . وبالتهجم تارة أخرى ، فأرجفت طائفة بأنه كذب ، وقد صنعه محمد من تلقاء نفسه ، وافتراه على الله ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إلاّ إفْكٌ مُفْتَرَى ﴾ سبأ ٤٣ . وحرضوا على النفور منه ، وترك الإصغاء له ودعوا إلى الطعن فيه فكانوا يقولون ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآنِ والغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغلِبُون ﴾ فصلت ٢٦ .

ولكن الله رد كيد الكافرين إلى نحورهم ، وأدخل اليأس على قلوبهم حين تحدى الرسول بلغاء العرب ، وفصحاءهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته ، فكان ذلك داعياً إلى الاعتراف بإعجاز القرآن ، وقصورهم أمام بلاغته .

والقرآن ليس معجزاً للعرب وحدهم ، وإنما هو معجز للعربي وغير العربي ؛ لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة ، ولا بوطن خاص ، وإنما هي دعوة تحتوي العالم بأسره ، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزاً لجميع الأمم والأجناس .

وحجة القرآن على العرب الفصحاء كحجته على غير العرب من الأعاجم . كما أن حجة موسى عليه السلام في قلب العصا حية ، كانت لأمهر السحرة وغير السحرة . وحجة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى لم تكن لأعظم الأطباء وحدهم ، وإنما كانت للطبيب الماهر والخامل ، وغير الطبيب على السواء ، وإذا عجز أمهر السحرة وأعظم الأطباء على الإتيان بمثل ما أتى به موسى وعيسى كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم .

كذلك الشأن في معجزة القرآن ، أتى به محمد لأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربي ، ورغم حرصهم على تكذيب الرسول ، وإفساد دعوته ، لم يفلحوا في مجاراته ، ولم يستطيعوا تكذيبه .

وإذا كان العرب الفصحاء عاجزين عن مجاراة أسلوب القرآن في فصاحته وبلاغته ، فغيرهم من الأعاجم أعجز .

وقد يقول قائل : إن الأعجمي الذي لا يفهم العربية لا يدرك ما في أسلوب القرآن من نظم معجز ، وبلاغة عجيبة ، ولا يدري من أين يكون إعجازه ، وكيف تكون بلاغته ، وعندئذ تسقط الحجة في الإعجاز . نقول إن

الإعجاز لغير العربي يبدو في أشياء أُخر فوق البلاغة والفصاحة التي لا يدرك مراميها ، فكل يوم تطلع علينا أشياء جديدة ، ومكتشفات حديثة لا نجد تناقضاً بينها وبين ما في القرآن من نهج اتبعه في التعبير عنها في تناسق تام لا نفرة فيه ، بحيث يدرك الأعجمي من هذا التناسق في التعبير ، والدقة في الأداء القرآني الذي يتفق وما يكتشفه العلم حديثاً ، سراً من أسرار الإعجاز في الأسلوب البياني للقرآن .

نرى مثلًا القرآن في تعبيره ينهج هذا الترتيب فيقول :

﴿ إنّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾ الإسراء ٣٦ .

« فيقدم السمع أولًا ، ويثني بالإبصار ، وينتهي بالفؤاد . والحقائق العلمية تثبت أن حاسة السمع تؤدي مهمتها أولًا منذ اللحظة الأولى من ولادة الإنسان .

وحاسة الإبصار تؤدي مهمتها خلال عشرة أيام ، فالبصر يؤدي مهمته ثانياً . ثم يأتي بعد ذلك ما يتعلق بالفؤاد من المعلومات العقلية والقلبية[1] » .

فالترتيب الذي ورد في الآية القرآنية نلمح من خلاله أن اللفظ المقدم أهم من الألفاظ التي ترد بعده ، وهذا هو التعبير البياني الدقيق ، فإذا جاء هذا التعبير على وفق ما قرر العلم ، كان التزاوج بين أسلوب القرآن في بلاغته وفصاحته ، وبين أسلوب العلم في اكتشافه وتقريره . فالأعجمي حين يجد هذا التماثل والانسجام بين التعبير القرآني والاكتشاف العلمي ، يتحقق من إعجاز القرآن في بلاغته .

وينبغي حينئذ ألا نلتفت إلى ما يزعمه علماء النحو من أن واو العطف تأتي لمطلق الجمع : بمعنى أنه يجوز في الآية أن نقدم السمع على البصر

---

(١) انظر القضاء والقدر للشيخ متولي الشعراوي ١٢٧ - ١٣٠ .

والفؤاد ونؤخره دون أن يختل المعنى ، وأصبح من الواضح أن الترتيب هنا فيه التزام ، نظراً لأهمية المتقدم عما جاء بعده .

ونلمح مثل هذا التوافق بين التعبير القرآني والتقرير العلمي حين يذكر القرآن السمع مفرداً ، والبصر جمعاً في بعض آياته مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾ النحل ٧٨ . ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُون أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصارُكُمْ﴾ فصّلت ٢٢ . « لأن الصوت لا مفر لك من سماعه ما دمت لا تستعين بشيء خارجي يمنعك من السماع كوضع شيء في الأذن ، بخلاف الصورة فيمكنك أن تراها فتدع عينك مفتوحة ، ويمكنك ألا تراها فتغلق عينيك دون أن تستعين على عدم الرؤية بشيء من الخارج، كما في حالة الامتناع عن السمع ، فالإبصار متعدد حيث يراه بعض الناس ، ويغمض الآخرون عيونهم عنه فلا يرونه ، وحيث إنك ترى حين تريد ، أو لا ترى حين لا تريد ، أما السمع فواحد حيث لا يمكنك إلا أن تسمع أنت ويسمع الآخرون جميعاً إذا انفجر صوت ، فالسمع واحد والإبصار متعدد »[1] وإذا كان هذا هو الشيء المقبول المسلم به كان تعبير القرآن بالإفراد عن السمع ، وبالجمع عن البصر موافقاً لما نعرفه ونسلم به . وبهذا يتحقق الإعجاز القرآني للعربي وغير العربي على السواء .

ولكن المفسرين لا يرون في مجيء السمع مفرداً والإبصار جمعاً إعجازاً علمياً ، ولكن يجيء لأسباب لغوية ترتبط بقواعد اللغة ، ففي قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعلى سمعهم وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ البقرة ٧، جاء السمع مفرداً بين القلوب والأبصار وكلاهما جمع ، يعلل ذلك الزمخشري فيقول : « ووحد السمع كما وحد البطن في قوله في قوله : كلوا في بعض بطنكم تعفّوا ؛ يفعلون ذلك إذا أمن اللبس ، فإذا لم يؤمن كقولك : فرسهم وثوبهم ، وأنت تريد الجمع

(١) المرجع السابق ١٣١ .

رفضوه ؛ ولك أن تقول : السمع مصدر في أصله ؛ والمصادر لا تجمع فتقدر مضافاً محذوفاً ؛ أي وعلى حواس سمعهم ؛ وقرأ ابن أبي عبلة : وعلى أسماعهم[1] فذكر الزمخشري لمجيء السمع مفرداً عللاً ثلاث : أمن اللبس حيث لا نرتاب في أن المقصود بالسمع هنا الجمع وليس المفرد . ثانياً : أن السمع مصدر والمصادر لا تجمع . ثالثاً : ورد في إحدى القراءات (وعلى أسماعهم) بالجمع .

(١) الكشاف ١ / ٤١ .

القرآن

القرآن : إسم خاص بكلام الله ، وله أسماء متعددة منها : الكتاب ، والفرقان ، والذكر .

وكلمة قرآن معناها : الجمع والتأليف فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنه ﴾ القيامة ١٧ . أي تأليفه ، وسمى ما بين دفتي المصحف : قرآناً ، لأنه جمع السور وضم بعضها إلى بعض ، أو معناها : القراءة ، فتقول قرأت قراءة حسنة ، وقرآناً حسناً ، فقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إن قرآن الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ الإسراء ٧٨ . أي قراءة الفجر ؛ يعني : صلاة الفجر[1] . وسمي قرآناً ؛ لأن القراءة عنه ، والتلاوة منه .

وقد تكرر لفظ القرآن ومشتقاته في المصحف الشريف سبعين مرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴾ الإنسان ٢٣ .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلنَاهُ قُرآناً عَرَبياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ﴾ يوسف ٢ .

---

(١) تفسير غريب القرآن ٢٣ لابن قتيبة ط عيسى الحلبي .

وكقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ القيامة ١٨ .

وأسماء القرآن عديدة تدل على شرفه وفضيلته ، كما أن أسماء الله تدل على جلاله وعظمته ، وكثرة أسماء الرسول تدل على سمو درجته . وعلو رتبته .

وقد ذكر الفخر الرازي للقرآن اثنتي وثلاثين سورة[١] .

وجعل الفيروز ابادي للقرآن مائة اسم[٢] .

وأشهر أسماء القرآن أربعة نستغني بها عن غيرها :

الذكر : لأن الله ذكّر به عباده ، وعرفهم فيه فرائضه وحدوده ﴿ وهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ الأنبياء ٥٠ .

والفرقان : لأنه فرق بين الحق والباطل ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّل الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالمِينَ نَذِيراً ﴾ أول الفرقان .

والكتاب : لأن الله كتب أحكامه وتكاليفه على عباده ، أي أوجبها عليهم ، قال تعالى ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الأنعام ٩٢ .

والقرآن : أي البيان ومنه ﴿ فَإذا قَرأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ القيامة ١٨ . أي بيانه ؛ لأن فيه بيان للناس لما يحتاجون إليه في أمور دينهم .

والسورة معناها : الإبانة بأن الكلام مفصول عما قبله ، وسميت في القرآن سورة ؛ لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور ، أو لأنه يبنى قطعة بعد قطعة . ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والملك سورة ، كقول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر :

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١ / ١٦٠ - ١٦٣ .

((٢)لبصائر ١ / ٨٨ .

ألـم تَـرَ أنّ الله أعْـطَاكَ سُـورَةً   تَـرَى كُـلَّ مُلْكٍ دُونهـا يَتَـذَبْـذَبُ

والآيـة : جمـاعـة الحـروف وهـو من قـولهم خـرج القـوم بآيتهـم أي بجمـاعتهم . أو بمعنى العلامة ؛ لأن الآية عـلامة للفصـل بين ما قبلهـا ومـا بعدها ، فآيات القـرآن علامـات لتمام مـا قبلها ومنـه قولـه تعالى ﴿ وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ آيـةَ مُلْكِهِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ التَّابـوتُ فِيهِ سَكِينَـةٌ مِنْ رَبكّمْ ﴾ البقـرة ٢٤٨ . وقوله ﴿ رَبَنـا أَنْزِلْ عَلَيْنَـا مَائِـدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُـونُ لنَا عِيـداً لأوَّلِنَا وَآخِـرِنَا وآيـةً مِنْكَ ﴾ المائدة ١١٤ أي علامة .

والحكمة في تقطيع القرآن سوراً ؛ والسور آيـات معدودات ؛ أن تكـون كل سورة وكل آية فناً مستقلاً وقرآناً معتبراً ؛ وفي تحديد السورة تـأكيد لكـونها معجزة وآية من آيات الله .

ومن السور ما يطول حتى يبلغ ٢٨٦ آية كسورة البقرة .

ومنها ما يقصر حتى لا يزيد عن ثلاث آيات كسورة الكوثر ، ليـدل على أن الـطول ليس شـرطـاً في الإعجـاز ، كمـا أن القصـر لا يخـرج السـورة عن الإعجاز ،بل إن سورة الكوثر رغم قصرها معجزة إعجاز سورة البقرة على طولها .

يقول الزمخشري : إن الفائدة في تقطيع القرآن سوراً كثيرة، أن القارىء إذا ختم السـورة وانتهى من آيـاتهـا، كـان ذلـك أنشط لـه وأبعث على الجـد والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، كما أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة فيعظم عنده ما حذقه[1] .

والذي انعقد عليـه إجماع الأمـة ، واتفق عليه المسلمـون كافـة أن عدد سـور القـرآن مـائـة وأربـع عشـرة سـورة ، وهي التي دُوِّنَتْ في المصحف ، وانتشرت من مدن الإسلام . .

---

(١) البرهان للزركشي ١ / ٢٦٥ ط عيسى الحلبي .

ولا التفات إلى الرأي القائل بأن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، أو من جعل المعوذتين سورة واحدة ، فيصبح عدد سور القرآن مائة وثلاث عشرة سورة ، فهذه أقوال شاذة لا ينظر إليها بعين الاهتمام .

وفي مصحف ابن مسعود مائة واثنتا عشرة سورة ؛ لأنه لم يكتب المعوذتين ، بل صح عنه أنه كان يَحُكُّهُما من المصاحف ويقول : ليستا من كتاب الله تعالى ، وإنما أمر النبي عليه السلام أن يتعوذ بهما ، ولهذا عوذ بهما الحسن والحسين ، ولم يتابعه أحد من الصحابة على ذلك[١] »

وعدد السور التي نزلت بمكة خمس وثمانون سورة . وأول السور المكية ﴿ اقْرأ باسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ ﴾ ثم ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم سورة تبّت .

أما السور التي نزلت بالمدينة فعددها ثمان وعشرون سورة ، وأول ما نزل بالمدينة ، سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة .

أما الفاتحة فاختلفوا فيها . قيل : أنزلت بمكة ، وقيل بالمدينة ، وقيل بكلٍّ مرة[٢] .

وبذلك يكون مجموع عدد سور القرآن **١١٤** .
والأرجح أن عدد آيات القرآن **٦٢٣٦** آية .
وعدد كلمات القرآن **٧٧٤٣٩** كلمة .
وعدد حروف القرآن **٣٢٣٠١٥** حرفاً[٣] .

---

(١) تفسير الألوسي (روح المعاني) ١ / ٢٤ ط المنيرية .
(٢) البصائر ١ / ٩٩ ، البرهان ١ / ١٩٤ .
(٣) القرطبي ١ / ٥٦ - ٥٧ ، البرهان ١ / ٢٤٩ ، الاتقان للسيوطي ١ / ٦٧ .

المكيّ والمدنيّ

اختلف الناس في تحديد المكيّ والمدنيّ ولهم في ذلك ثلاثة آراء :

الأول : أن المكّيّ : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة . والمدني : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة كقوله تعالى ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ الآية الحجرات ١٣ نزلت بمكة يوم الفتح وهي مدنية ، لأنها نزلت بعد الهجرة ، وقوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ ﴾ الآية المائدة ٣ مدنيّة وقد نزلت بعرفة في حجة الوداع : وهذا هو الرأي المشهور ، ولما فيه من الانضباط ، فالمعوّل عليه الزمن ، وهو الذي يحدد نوع السورة ، ولا يرد عليه ما ينقضه .

الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، وهذا الرأي يرد عليه ما ينقضه ، وهو ما نزل على الرسول في بعض أسفاره لا يطلق عليه أنه مكي أو مدني ، كآية التيمّم ، فعن عائشة رضي الله عنها : أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة ، وسورة المائدة نزلت بين مكة والمدينة في حجة الوداع كما أخرجه أبو عبيد[1] .

الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة . والمدنيّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة .

والغالب على أهل مكة الكفر فخطبوا بـ ﴿ يَـا أَيُّهَا النَّـاسُ ﴾ وإن كان غيرهم داخلاً فيهم .

والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ ﴿ يَأَيُّهَـا الَّذينَ آمَنُـوا ﴾ وإن كان غيرهم داخلاً فيهم .

---

(١) الإتقان ١ / ١٩ .

ويمكن نقص هـذا الرأي أيضـاً : فسورة البقـرة مدنيـة وفيها : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ آية ٢١ .

وسورة النساء مدنية وفيها ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكم ﴾ آية ١

وسـورة الحج مكيـة وفيها ﴿ يَـأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا ارْكَعُـوا واسْجُدُوا ﴾ آيـة ٧٧ .

وعلى هذا يكون الرأي الأول هو الرأي الأرجح والمشهـور بين الناس . وزمن الهجرة هو العامل الحاسم في تحديد المكي من المدني ، فما كان قبل الهجرة مكي ، وما بعدها مدني .

وربمـا كان سبب هـذه الأقوال وعـدم اتفـاق النـاس على رأي واحـد ، واختلاف وجهات النظر بينهم ، هو أنه لم يكن من النبي عليه السـلام تحديـد للمكي والمـدني ، ولم يرد عنـه في ذلك قـول ، ومن ثم لجـأ النـاس إلى أن يعملوا بالرأي والاجتهاد على قدر الطاقة ليضعوا الفواصل بين هذين النوعين ، ومـا دامت هذه الأقـوال متعلقة بـالاجتهاد وليست منقـولـة عن الـرسـول عليـه السلام ، لم يكن الأخذ بواحد منها أمراً لازماً يجب النقل عنه أو الأخذ به .

ونلاحظ أن السور المكية تتميز بـالعبارات المـوجزة ، والفِقَر القصيرة ؛ لأن فصاحة أهـل مكة وبـلاغتهم لا تباريهـا فصاحـة أو بلاغـة ، وأثر عنهم أن البلاغة هي الإيجـاز ، ولذلـك كانـوا يبهرون حين يستمعـون إلى آيات القـرآن وسوره فتأخذهم الدهشـة ويعتريهم الذهول ؛ لشـدة إحساسهم بجمـال القول وبلاغة التعبير ، حتى وصفوا القرآن بأنه : سحر يؤثر .

أما السور المدنية فكان معظمها يتميز بالإطناب ، لما يحويه من تشريـع في العبادات والمعاملات،وأمور الدين والدنيا بعد أن شمل الناس الاستقرار ، وتمكنت الـدعوة الإسـلامية من الـذيوع والانتشـار . وأهل المـدينة لم يكـونوا

جميعاً من العرب الخلص الذين يمتازون بالفصاحة والإيجاز ، فمنهم اليهود الذين كانوا منتشرين بالمدينة ، فكان الإطناب هو الأمثل في مخاطبتهم ومراعاة أحوالهم . ووضع الإيجاز موضع الإطناب ليس من البلاغة ، إذ أن مراعاة الأحوال تقضي بأن لكل مقام مقال . وهكذا شمل القرآن الإيجاز والإطناب ، وسلك الطريق الذي يلائم هذا وذاك ، وبلغ الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة .

جمع القرآن

استمر الوحي يهبط على رسول الله ﷺ من مبعثه إلى وفاته فترات متقطعة طيلة ثلاثة وعشرين عاماً ، فاتخذ الرسول لكتابة الوحي بعض الصحابة : منهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعلي وعثمان . وكان من كتاب الوحي أيضاً خالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت، وأبيٌّ بن كعب . وكان الرسول يأمرهم بكتابة ما نزل من القرآن ، ويرشدهم إلى موضع الآية من السورة . وقد أمكن كتابة القرآن كله في عهد الرسول مفرقاً غير مجموع في موضع واحد ، وغير مرتب السور . وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن في الرّقاع »[1] ومعنى التأليف هنا ضم الآيات المفرقة وجمعها في سورة واحدة بأمر الرسول عليه السلام .

والمراد بالرّقاع كل ما يمكن الكتابة عليه في ذلك الوقت من أدوات فطرية مثل الجلد والحجارة الرقيقة وجريد النخل والعظام والأخشاب .

وإنما لم يكتب القرآن في مصحف واحد في عهد الرسول ؛ لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما منجماً ـ على دفعات ـ يطرأ عليه النسخ من حين

(١) الألوسي ١ / ٢ ، الإتقان ١ / ٥١ .

لآخر فيكون عرضة للتغير في كل وقت ، ومن ثم لا يأتي جمع القرآن إلا بعد وفاة الرسول حتى يكون القرآن قد اكتمل نزوله ، وحتى لا يكون معرضاً للتغيير أو التبديل أو النسخ .

أما الجمع الثاني فقد كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه حين استحر القتل « كثر واشتد » بقراءة القرآن في موقعة اليمامة بين المسلمين والمرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب سنة اثنتي عشرة للهجرة، وقتل من الحفاظ عدد كبير ، فأشار عمر رضي الله عنه على أبي بكر أن يجمع القرآن مخافة أن يذهب بذهاب الصحابة الحافظين لكتاب الله ، واستشهادهم في المعارك الحربية ، مثل ما حدث من قبل في موقعه اليمامة ، فتردد الصديق أبو بكر أولاً ؛ لأنه لا يريد أن يفعل شيئاً لم يأمر به الرسول ولم يفعله ، ولم يزل عمر يراجع الصدّيق حتى شرح الله صدره للاقتناع بفكرة جمع القرآن ، فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت أحد كتاب الوحي لرسول الله وأمره بتتبع القرآن وجمعه في الصحف ، وتردد زيد كما تردد من قبله أبو بكر ، وظل أبو بكر يراجعه حتى شرح الله صدره ، واستمر زيد يتتبع القرآن ويجمعه من العسب : جريد النخل . واللخاف : الحجارة الرقيقة ، وصدور الرجال حتى فرغ من مهمّته وجمعه على الورق ، وبقيت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم نقلت إلى عمر وبقيت عنده ، ثم عند ابنته حفصة من بعده .

وقد اشتملت كتابته على الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن كما كانت في عهد الرسول .

والجمع الثالث : كان في عهد عثمان رضي الله عنه .

وقد روى البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن أن حذيفة بن اليمان لما قدم من غزوة أرمينية مع أهل الشام ، وأذربيجان مع أهل العراق ، دخل على عثمان ينتابه الفزع ، ويسيطر عليه القلق من اختلاف الصحابة في

قراءة القرآن ، وطلب منه أن يدرك الأمة الإسلامية قبل أن تختلف في كتاب الله اختلاف اليهود والنصارى ، فطلب عثمان الصحف من حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأمر زيد بن ثابت ومعه ثلاثة من الصحابة بنسخها في المصاحف ، وقال عثمان لزيد ومن معه من الصحابة : إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة بعد أن تم لهم نسخ القرآن في المصاحف ، وأرسل في كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1] .

فالجمع في عهد الرسول كان جمعاً لآيات القرآن المفرقة وضمها في سورة واحدة ، وكتابتها على ما تيسّر من أدوات الكتابة من الجلد وجريد النخل والحجارة والعظام .

والجمع في عهد أبي بكر كان الدافع إليه الخوف من ذهاب القرآن بذهاب حفظة القرآن في المواقع الحربية . وقد تميز بأنه كان جمعاً للقرآن في مكان واحد ، وصحف مجموعة بدلاً من وجوده مفرقاً في الحجارة وجريد النخل والجلد والعظام ، وغير ذلك . وإن بقي على ما كان عليه في عهد الرسول من اشتماله على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن .

أما نسخ القرآن في عهد عثمان فقد كان الدافع إليه الاختلاف في وجوه القراءة . فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم لبعض مما أفزع عثمان . ولم يقتصر النسخ في عهده على ترتيب الآيات في السور كما كان في عهد الرسول وأبي بكر؛ بل شمل أيضاً ترتيب السور في المصحف على الوجه الذي نقرأه اليوم ، « واكتفى فيه بحرف واحد من الحروف السبعة ، وهو لغة قريش ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم »[2] .

---

(١) الطبري ١ / ٢١ ، تفسير ابن عطية ١ / ٦٥ ، البرهان ١ / ٢٣٦ .

(٢) الإتقان ١ / ٥٩ - ٦٠ .

ترتيب الآيات وترتيب السور

أما ترتيب الآيات في كل سورة ووضع البسملة في أولها فهو أمر توقيفي بلا شك ، وليس من اجتهاد الصحابة حتى يطرأ عليها تقديم أو وتأخير ، وهذا مجمع عليه من غير خلاف بين المسلمين ، والنصوص تؤكد ذلك ، ومن ثم لا يجوز تعكيسها أو التصرف في ترتيبها .

يقول بعض العلماء : ترتيب الآيات في السور هو من النبي عليه السلام ، وأول براءة تركت بلا بسملة ؛ لأن النبي لم يؤمر بذلك .

قال القاضي أبو بكر : ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا .

ويقول البغوي في شرح السنة : كان الرسول يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية ، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا .

ومن المجمع عليه أن ترتيب الآيات في السورة لم يكن بحسب نزولها ، وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية ، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين وتكون في ترتيب السورة قبلها[1] .

أما ترتيب السور في المصحف ففيه ثلاثة آراء :

الرأي الأول : أن ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة ، فمن السلف من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدم المكي على المدني ، ومصحف علي رضي

(١) البرهان ١ / ٢٥٦ ، القرطبي ١ / ٢٥٢ .
الألوسي ١ / ٢٥ ، الإتقان ١ / ٦١
المدخل إلى دراسة القرآن د . أبو شعبة ٣٢٠ .

الله عنه كان أوله ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ . ومصحف ابن مسعود أوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ثم البقرة ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام ، ثم الأعراف ، ثم المائدة[1] .

الرأي الثاني : أن ترتيب السور على ما هو عليه في مصحفنا اليوم كان عن توقيف من النبي عليه السلام ؛ لأن جبريل أوقف الرسول على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن محمد خاتم النبيين ، فمن أخر سورة مقدمة ، أو قدم سورة مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والكلمات .

وأما ما روي عن اختلاف مصحف علي وابن مسعود وأُبيّ فإنما كان قبل العرض الأخير من جبريل على رسول الله ، فالرسول رتب لهم السور بعد أن لم يكن فعل ذلك .

يقول الألوسي : والذي ينشرح له صدر هذا الفقير هو ما انشرحت له صدور الجمع الغفير أن ما بين اللوحتين الآن موافق لما في اللوح من القرآن وحاشا أن يهمل النبي عليه السلام أمر القرآن وهو نور نبوته ، وبرهان شريعته ، فلا بد إما من التصريح بمواضع الآي والسور ، وإما من الرمز إليهم بذلك ، وإجماع الصحابة في المآل على هذا الترتيب[2] .

الرأي الثالث : أن ترتيب السور بعضه توقيفي بفعل الرسول ، وبعضه اجتهادي بفعل الصحابة ، وهذا الرأي هو الذي مال إليه ابن عطية : « فظاهر الآثار أن السبع والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي عليه السلام . وكان في السور ما لم يرتب . فذلك هو الذي رتب وقت الكتب »[3] .

---

(١) البرهان ١ / ٢٥٩ ، القرطبي ١ / ٥١ .

(٢) القرطبي ٢ / ٥٢ ، البرهان ١ / ٦٠ ، الألوسي ١ / ٢٥ ، / ٢٦ .

(٣) المحرر الوجيز (تفسير عطية) ١ / ٦٦

السبع الطوال : أولها البقرة وآخرها التوبة ، لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة .

والمفصل : قصار السور وأولها سورة قٓ على الأرجح .

معنى الأحرف السبعة

قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه[1] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « أقرأني جبريل القرآن على حرف فاستزدته فزادني ثم استزدته فزادني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » .

اختلف المسلمون في عهد رسول الله ، فقد كان الواحد منهم يقرأ بعض آيات من القرآن فيسمعها الصحابي عنه فيراها تختلف عن قراءته التي سمعها من الرسول ، فينكر عليه قراءته . وعن أبي عمر قال : « سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ فسمع آية على غير ما سمع من النبي فأتى به عمر إلى النبي ، فقال يا رسول الله : إن هذا قرأ آية كذا وكذا ، فقال الرسول : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف »[2]

وهذه القراءات المختلفة بين الصحابة التي يقرؤها كل منهم بما تلقاه عن الرسول لا تؤدي إلى الاختلاف أو التناقض أو التغيير ، فلا تبدّل حلالا بحرام ، ولا عذاباً برحمة ، وإنما هو اختلاف في كلمات يسيرة قد يتغير لها المعنى ولكنه لا يضطرب ولا يتناقض .

(١) صحيح مسلم ٢ / ٢٠٢ .
(٢) الطبري ١ / ١٠ ، ١١ .

عن علقمة النخعي قال : « لما خرج عبد الله بن مسعود من الكوفة اجتمع إليه أصحابه فودعهم ثم قال : لا تنازعوا في القرآن فإنه لا يختلف ولا يتلاشى ولا يتغير لكثرة الرد ، وإن شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه فيه واحدة ، ولو كان شيء من الحرفين ينهي عن شيء يأمر به الآخر كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله ، لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ولا شيء من شرائع الإسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع فيه عند رسول الله ﷺ فيأمرنا فنقرأ عليه فيخبرنا أن كلا منا محسن[1] .

ومعنى قوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف »[2] أي : على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن ، وهي سبع قبائل من العرب مشهورة بالفصاحة : قريش ، وقيس ، وتميم ، وهذيل ، وأسد ، وخزاعة ، وكنانة ، لمجاورتهم قريشاً[3] . وهذه اللغات هي أفصح لغات العرب الذين كانوا وسط الجزيرة العربية ، دون الذين كانوا بأطرافها ، فإن العجم أفسدوا لغاتهم بمخالطتهم ومجاورتهم .

والأصل فيمن نزل القرآن بلغتهم: قريش ؛ لأن الرسول قرشي، ثم بنو سعد لأن الرسول استرضع فيهم ، وأقام عندهم حتى ترعرع ، ثم ثقيف وخزاعة وهذيل وكنانة وأسد وضّبة لقربهم من مكة وكثرة ترددهم عليها ، ولم يعتد بلغة شرق الجزيرة ؛ لفساد لغتهم بمخالطة الفرس ونصارى الحيرة ، ولا شمال الجزيرة لمخالطتهم الروم ، ولا غرب الجزيرة ؛ لأن أكثرها غير معمورة ، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات لم يكدر صفو كلامها لكنه العجم .

فمن قرأ القرآن قراءة ابن مسعود فقد قرأه بحرفه ، ومن قرأه بقراءة

---

(١) الطبري ١ /١١
(٢) والإشارة إلى الإيجاز ٢٧٠
(٣) النيسابوري ١ / ٢١ .

أبيٍّ بن كعب فقد قرأه بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد بن ثابت فقد قرأ بحرفه .

والحكمة في تعدد القراءة ونزول القرآن بهذه اللغات هي التيسير والرفق بقبائل العرب ، لأن الله لو كلفهم أن يقرأوه بلغة واحدة لشق على سائر القبائل الخروج عما ألفوه من لغتهم ، فكان من اللطف بهم أن يقرأه أهل كل لغة بلغتهم ؛ لأن من ألف لغة عسر عليه الخروج منها غاية العسر ، واشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وقطع للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات[1] ولذلك التمس الرسول من جبريل لما أمره أن يقرأ القرآن على حرف أن يزيده حتى بلغ سبعة أحرف .

ومن اختلاف اللغات ما لا يتغير معه المعنى ، ومنه ما يتغير معه المعنى إلا أنه يكون مساوقاً للآية ولا يؤدي إلى التناقض أو التبديل .

ومن أمثلة الاختلاف الذي لا يتغير معه المعنى ، بل يبقى على ما هو عليه ، قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هود ٧٨ .

وقراءة أخرى بنصب أطهر ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهرَ لكم ﴾ .

﴿ وهل نُجازِي إلا الكَفُورَ ﴾ سبأ ١٧ بالبناء للمعلوم .

﴿ وهل يُجازَى إلا الكَفُورَ ﴾ سبأ ١٧ بالبناء للمجهول .

﴿ وَيَأْمُرونَ النّاسَ بالبُخْل ﴾ النساء ٣٧ بضم الباء وفتحها .

ويأمرون الناسَ بالبُخُل ﴾ النساء ٣٧ بضمتين[2] .

والهذلي يقرأ (حتى حين) فيقول : « عَتَّى حَين » فهكذا يلفظ بها ويستعملها .

---

(١) المشكل ٣٠ .

(٢) الكشاف ١ / ٣٩٤ .

والأسدي يقرأ ﴿ يَوْمَ تِسْوَدّ وُجُوهٌ ﴾ آل عمران ١٠٦ بكسر التاء .

والتميمي يهمز في قوله ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ يسٓ ٦٠

والقرشي لا يهمز في مثل هذه الآية .

وبعض القبائل يقرأ ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يس ٢٩ .

وقرئت ﴿إن كانتْ إلا زَقْيةً واحدةً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبالُ كَالعِهْنِ الْمنفُوش ﴾ القارعة ٥ .

وقرئت : ﴿وتكونُ الجبالُ كالصُّوفِ المنفوش ﴾ .

فهـذه الكلمـات على مـا فيهـا من اختـلاف في الإعـراب أو تغييـر في الصـورة ، لا تؤدي إلى اختـلاف المعنى ، بـل المعنى فيهـا ممـاثـل للقـراءة الأخرى إلا في اللفظ أو النطق .

أما النوع الثاني الذي يتغير معه المعنى[١] فذلك مثل قوله تعالى :

﴿ ربَّنا باعدْ بين أسْفَارِنا ﴾ سبأ ١٧ على طريق الدعاء والمسألة .

﴿ وربُّنا باعدَ بَيْنَ أسْفَارِنا ﴾ سبأ ١٧ على طريق الإخبار .

والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ؛ لأن أهل سبأ سألـوا الله أن يفرقهم في البلاد فقالوا ﴿ ربنا باعدْ بين أسفـارنا ﴾ فلمـا فرقهم الله في البـلاد أيدي سبـا وباعد بين أسفارهم قالوا : ﴿ ربنا باعدَ بين أسفارنا ﴾ وأجابنا إلى مـا سألنـا ، فحكى الله سبحانه عنهم بالمعنيين في غرضين .

وكقوله تعالى : ﴿ إذ تَلَقَّوْنَه بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ النور ١٥ أي تقبلونه وتقولونه .

---

(١) المشكل ٣١ .

و ﴿ إذ تلِقُونه ﴾ تكذبونه . والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ؛لأنهم قبلوا حديث الإفك وقالوه وهو كذب ، فأنزل الله على نبيه بالمعنيين جميعاً في غرضين .

وكقوله تعالى ﴿ وادَّكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يوسف ٤٥ أي بعد حين .

و ﴿ بعد أمَةٍ ﴾ أي بعد نسيان له . والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له ، فأنزل الله على لسان نبيه بالمعنيين جميعاً في غرضين .

وكقوله ﴿ وانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ﴾ البقرة ٢٥٩ .

وقرئت ﴿ كيف ننشُرها ﴾ والإنشار : الإحياء ، والأنشاز : التحريك للنقل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُود ﴾ وقرئت ﴿ وطلع منضود ﴾ الواقعة ٢٩ . والطلح : الشجر ، والطلع : النوار الطيب الرائحة . فعني به الشجر الذي تتفتح فيه النور الطيب الرائحة .

ويتضح من ذلك أنه اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند البعض في الأكثر ، وإنما هو يرجع إلى أن قريشاً استعملت في عبارتها شيئاً ، وأن هذيلاً استعملت في ذلك المعنى شيئاً غيره ، وسعد بن بكر شيئاً آخر ، والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم .

ويوضح القرطبي[1] أن الأحرف السبعة شيء يختلف تماماً عن القراءات السبع فيقول :

وقد زعم بعض الناس أن المراد بقوله عليه السلام « أنزل القرآن على

---

(١) القرطبي ١ / ٤٠ ، الألوسي ١ / ٢٠ .

سبعة أحرف » القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبع ؛ لأنها كلها صحت عن الرسول .

وهذا فاسد وغير صحيح ؛ لأن هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ، ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف .

والألوسي يؤكد وجهة النظر التي ذهب إليها القرطبي في تفسيره فيقول :

وقد ظن كثير من القوم أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع ، وهو جهل قبيح .

العدول عن الأحرف السبعة :

ذكرنا فيما سبق حين تحدثنا عن جمع القرآن للمرة الثالثة في عهد عثمان رضي الله عنه ، أن حذيفة بن اليمان حين وجد المسلمين قد اختلفوا في قراءة القرآن وقت الغزو في أرمينية وأذربيجان ، شكا إلى عثمان وأفصح له عن مخاوفه من اختلاف المسلمين حول كتاب الله ، فكل يقرأ بحرف من الحروف السبعة التي قد يختلف فيها مع غيره فنشأت الفُرقة ودب الخلاف ، فسارع عثمان إلى جمع القرآن على حرف واحد : هو الحرف الذي تنطق به قريش ، وهو ذلك المصحف الذي بين أيدينا ونتلو منه الآن .

فالضرورة التي دعت إلى نزول القرآن بسبعة أحرف وأريد منها الترفق بالعرب ، والتيسير عليهم ، نظراً لاختلاف لغاتهم ومشقة الخروج عنها قد زالت حين انضبط الأمر في آخر العهد وتدربت الألسن ، وتمكن الناس من

الاقتصار على الطريقة الواحدة فعرض جبريل القرآن على النبي مرتين في السنة الأخيرة ، واستقر على ما هو عليه الآن فنسخ الله تلك القراءة التي سمح بها ، وأوجب الاقتصار على هذه القراءة التي تلقاها الناس[1] .

والقراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على المسلمين ، وإنما كانت جائزة ، ومرخصاً لهم بها ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تكاد تفترق وتختلف إذا لم تجمع على حرف واحد ، أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ، ولا فعل لحرام ، فكتب الصحابة ما تحققوا أنه استقر في العرضة الأخيرة وتركوا ما سوى ذلك .

« وإذا جاز للمتقدمين من الصحابة والتابعين أن يقرأوا بلغاتهم جرياً على عادتهم ، فليس لنا نحن الآن أن نقرأ القرآن بغير لغة قريش التي كتب بها مصحف عثمان ؛ لأنه من اختيار السلف الذي كان وفقاً للعرضة الأخيرة على الرسول ، وليس لنا أن نعدو ذلك ونتعداه .

ولو قرأنا القرآن بغير ما ثبت في مصحفنا لجاز أيضاً أن نكتبه على الاختلاف ، والزيادة والنقصان ، فيدب الشقاق ، وتشتد الفرقة بين المسلمين ، وهذا ما كرهه لنا الأئمة الموفقون رحمة الله عليهم[2] » .

---

(١) البرهان ١ / ٢١٣ .
(٢) المشكل ٣٢ .

القرآن والألفاظ الأجنبيّة

وردت في القرآن الكريم ألفاظ تجري على لسان غير العرب من الأعاجم : ففيه ألفاظ حبشية وفارسية ، ورومية ، ونبطية وسريانية ، وعبرانية .

فمن الألفاظ التي جرت بلسان **الحبشة** قوله تعالى :

﴿ يُؤْتِكم كِفْلَين من رَحْمَتِه ﴾ الحديد ٢٨ أي ضعفين .

﴿ يا جبالُ أوِّبِي مَعَه ﴾ سبأ ١٠ أي : سبّحي .

﴿ كأنهمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة فَرّتْ مِنْ قسورة ﴾ المدثر ٥١ أي : الأسد .

﴿ إنَّ ناشِئَة ٱلليلِ ﴾ المزمل ٦ أي قيام : الليل .

﴿ الله نُورُ السَّمواتِ والأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ ، الزّجَاجةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ النور ٣٥ .

المشكاة : الكوة ، والدري : المضيء . ومن الألفاظ الحبشية[1] : أبلعي ، أرائك ، أوّاب ، أوبي ، الجبتْ ، حوبا ، السجلّ ، سينين ، شطر ، طوبى ، والعَرِم ، غيض ، وغيرها .

---

(١) وقد ذكر السيوطي ألفاظاً جمّة لما وقع في القرآن الكريم من اللغات الأعجمية

ومن الألفاظ التي جرت بلسان **الفرس** قوله تعالى :

﴿ بأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِين ﴾ الواقعة **١٨** الأبريق : طريق الماء .

﴿حَتَّى إذا جاءَ أمْرُنا وَفارَ التَّنُّور قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَين﴾ هود **٤٠** والتنور : الكانون أو وجه الأرض .

﴿ وأرسَلَ عليهِمْ طَيْراً أبابيل تَرْمِيهِمْ بِحجارةٍ مِنْ سِجِّيل ﴾ الفيل **٣ ، ٤** والسجيل : حجارة من طين .

﴿ عالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْر وإستبرق ﴾ الإنسان **٢١** . السندس : رقيق الديباج ، والاستبرق : غليظ الديباج .

﴿ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ التكوير **١** أي غُوِّرت . .

﴿ خِتَامَهُ مِسْك ﴾ المطففين **٢٦** نوع من الطيب .

﴿ كأنهنّ الياقُوتُ والمَرْجَان ﴾ الرحمن **٥٨** الياقوت : من الأحجار الكريمة يتميز بصفاء اللون .

﴿ إنَّ الأبرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزاجُهَا كافُوراً ﴾ الإنسان **٥** الكافور : نوع من الطيب .

﴿ وَمِنْ أهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِهِ إليكَ إلاّ مَا دُمْتَ عَلَيْه قائماً ﴾ آل عمران **٧٥** . الدينار : عملة نقدية معروفة .

﴿ وأمَّا الجِدارُ فَكَان لِغُلاَمَيْنَ يَتيمَيْنِ في المدينة وكانَ تحتَهُ كَنْزٌ لَهُما ﴾ الكهف **٨٢** . الكنز : المال المدفون .

ومن ذلـك : السرادق ، سنـدس ، كافـور ، كنز ، مسـك ، مقـاليـد ، وسرادق وغيرها .

ومن الألفاظ **السريانية** : الأرائك بمعنى السرر في قوله تعـالى : ﴿ على الأرائك يَنظُرون ﴾ المطففين **٣٥** .

والأسفار بمعنى الكتب في قوله تعالى ﴿ مثل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْملوها كمثلِ الحمارِ يَحْمل أسفَاراً ﴾ الجمعة **٥** .

والرِّبِّيُّون بمعنى العلماء بربهم . في قوله تعالى :

﴿ وكأيّن مِنْ نبيّ قاتَل مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴾ آل عمران **١٤٦**

وسُجَّدا : أي مقنعي الرؤوس في قوله تعالى :

﴿ وقُولُوا حِطةٌ وادْخُلُوا البابَ سُجَّداً ﴾ الأعراف ١٦١ .

والطور : أي الجبل في قوله تعالى : ﴿ والطورِ وكتابٍ مَسْطورٍ ﴾ الطور

واليمّ : أي البحر في قوله تعالى :

﴿ فإذا خِفْتِ عليهِ فـألقيهِ في اليَمِّ وَلا تَخـافِي وَلا تَحْزَني ﴾ القصص ٧ وكذلك : القيّوم ، هونا ، رهوا ، عدْن ، شهر ، وغيرها .

ومن الألفاظ **النبطية** قوله تعالى :

﴿ قال أأقْرَرْتُمْ وأخذْتُم على ذلكم إصْرِي ﴾ آل عمـران ٨١ . إصري : عهدي .

﴿ قال الحواريّونَ نَحنُ أنْصَارُ اللّهِ ﴾ آل عمران **٥٢** .

الحواريون : أصفياء عيسى الخلصاء .

﴿ واترك البحْرَ رَهْواً ﴾ الدخان **٢٤** . رهواً : سهلاً .

﴿ بأيْدِي سَفَرَه ﴾ عبس ١٦ . السفرة : القراء .

﴿ قال فخذ أربعةً مِنْ الطيرِ فَصُرْهنّ إلَيْكَ ﴾ البقرة ٢٦٠ .

صرهن : جزّئهن .

﴿ وَقَـالُوا رّبنـا عَجّل لَنا قِطَّنـا قَبْلَ يَـوْمِ الحِسَابِ ﴾ صٓ ١٦ . قـطنا : كتابنا .

﴿ وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السمواتِ والأرضِ ﴾ الأنعام ٧٥ .

الملكوت : الملك .

وكذلك : أكواب ، تتبيرا ، حواريون ، سيناء ، هيت لك ، وغيرها .

ومن الألفاظ **العبرانية** قوله تعالى : ﴿ قالوا نفقد صُوَاعَ المَلِكِ وَلمنْ جاَء بِهِ حِمْلُ بَعِير ﴾ يوسف ٧٢ . البعير : كل ما يحمل عليه .

﴿ كتابٌ مَرْقُوم ﴾ المطففين ٢٠ . مرقوم : مكتوب .

﴿ إنا هُدْنا إليك ﴾ الأعراف ١٥٦ . أي تبنا .

﴿ وعِبادُ الرحمنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنا ﴾ الفرقان ٦٣ .

هونا : حكماء .

﴿ وَلَـولاَ دَفْـعُ الَّلهِ النـاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لهُـدِّمتْ صَـوامِـعُ وبِيَـعٌ وصلوَات ﴾ الحج ٤٠ . الصلوات : كنائس اليهود .

وكذلك : راعنا ، الرحمن ، طوى ، فوم ، القُمّل ، مرقوم وغيرها .

ومن الألفاظ **الرومية** قوله تعالى :

﴿ أمْ حَسِبْتَ أنّ أصحابَ الكهْفِ والرّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنَا عَجَبا ﴾ .

الكهف ٩ . الرقيم : اللوح .

﴿ وَطَفِقا يَخْصِفَان عليهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة ﴾ الأعراف ٢٢ .

طفقا : قصدا .

﴿ الذينَ يرثُونَ الفِرْدوْسَ هُم فيها خَالدون ﴾ المؤمنون ١١ .

الفردوس : البستان .

﴿ شهِد اللَّهُ أنّهُ لَا إلَهَ إلاّ هُوَ وَالْملاَئِكَةُ وأُولُوا العِلْم قائِماً بِالْقِسْط ﴾ آل عمران ١٨ .

﴿ وَزِنُوا بالقسطاس المسْتَقِيم ﴾ الشعراء ١٨٣ . القسط والقسطاس : العدل .

﴿ اهدنَا الصِّراطَ المستَقيم ﴾ الفاتحة ٥ . الصراط : الطريق .

ومن ذلك القنطار أيضاً .

ومن الألفاظ الزنجية قوله تعالى :

﴿ وأُمَمٌ سَنُمِتّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيم ﴾ هود ٤٨ ، أليم : موجع .

﴿ إنكُم وما تَعْبُدُون مِنْ دُون الّلهِ حَصَبُ جَهنم ﴾ الأنبياء ٩٨ .

الحصب : الحطب . وكذلك منسأة : العصا .

ومن الألفاظ التركية ما ورد في قوله تعالى :

﴿ هَذَا فلْيذوقوهُ حَميم وغسّاق ﴾ ص ٥٧ ، الغساق : البارد المنتن .

وهناك ألفاظ غير عربية لم يعرف مصدرها مثل : حطة ، الرسّ ، سجّين ، سقر ، سلسبيل ، وغيرها .

هذه هي بعض الألفاظ الأجنبية التي وردت في القرآن بلغات متعددة ، ومن ثم تساءل بعض الناس ، كيف يكون القرآن منزلاً بلسان عربي مبين ، وفيه ألفاظ أعجمية ؟ !

وكيف يتفق قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِه ﴾ إبراهيم ٤ مع ما ورد من هذه الألفاظ التي تختلف عن لسان العرب ؟

يقول ابن جرير الطبري : إن هذه الأمثلة المنسوبة إلى اللغات الأعجمية هي أيضاً من الألفاظ العربية ، وإنما وردت في اللغات الأخرى من باب الاتفاق ، وتوارد اللغات ، فتكلمت العرب والفرس والحبشة بلسان واحد ، ومن غير الجائز على ذوي الفطر السليمة الذين قرأوا القرآن ،وأقروا بكتاب الّله ، وعرفوا حدوده ، أن يعتقدوا أن بعض القرآن فارسي لا عربي ، وبعضه نبطي لا عربي ، وبعضه حبشي لا عربي بعد ما أخبر الله تعالى ذكره ، أنه جعله قرآناً عربياً ، وهذا أيضاً مذهب الشافعي وعليه جمهور العلماء ، ويؤيد ذلك الامام الرازي وأتباعه .

فما وقع في القرآن من نحو المشكاة والقسطاس ، والاستبرق ، والسجّيل لا نسلم أنها غير عربية ، بل غايته أن وضع العرب فيها وافق لغة أخرى كالصابون والتنور ، فإن اللغات فيها متفقة[1] .

وثمة رأي يقول : إن هذه الألفاظ الأعجمية التي وردت في القرآن ألفاظ يسيرة لا يعتد بها ، ولا تخرج القرآن عن كونه بلسان عربي مبين ، ولا رسول الله عن كونه متكلماً بلسان قومه ، وهذا مذهب ابن عباس وعكرمة، وغيرهما[2] .

---

(١) الطبري١ / ٨ ، ابن عطية ١ / ٦٩ ، القرطبي ١ / ٥٩ ، البرهان ١/ ٢٨٩ ، المزهر ١ / ٦٧ .
(٢) القرطبي ١ / ٥٩ ، البرهان ١ / ٢٨٨ .

ورأي ثالث ينادي به ابن عطية . ويرى أن الألفاظ أصلها أجنبي ، ولكن العـرب بسبب تنقلاتهم واشتغـالهم بالتجـارة ، وارتحالهم بـالشتـاء والصيف ، وسفـرهم إلى الشام والحبشـة والحيرة ، علقت بـألسنتهم ألفاظ أعجميـة ، ثم غيـرت بعضها بـالنقض من حروفهـا ، والتخفيف من ثقلهـا ، واستعملتهـا في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العـربي الصريـح ، ووقع بهـا البيان ، وعلى هـذا الحـد نـزل بهـا القـرآن : وهـذا مـا رجحـه أبـو عبيـد القـاسم بن سلام[1] .

فـالأصل أن هـذه الألفاظ أعجميـة ، ولكن العـرب نقلوهـا واستعملوهـا وعربوها وهو ما اميل إليه ، أما ما ذهب إليه الـطبري وأخـذ به جمهـور العلماء من أن اللغتين اتفقتا في الألفاظ فهذا بعيد ؛ لأن أكثـر هذه الألفـاظ وردت في إحدى اللغات كأصل ، ووردت في اللغـة الأخرى كفـرع ، أما اتفـاق اللغتين في اللفظة الواحدة فهذا قليل وشاذ .

ترجمة القرآن

كان هذا الموضع مثـار جدل شـديد بين العلمـاء قديمـاً وحديثـاً ، بيـن العـرب وغير العـرب ، ويكثر الكـلام خاصـة إذا نعي إلينا أحـد المستشـرقين الكبار الذي قاموا بترجمة القرآن الكريم إلى لغاتهم .

ومن المعلوم أن اللغة العربية لها خصائصها الفريدة وسماتها المميزة عن غيرها من اللغات ، والتعبير العربي يحمل في طياته من الـدقة والبـراعة بحيث يختلف المعنى إذا قدمت الكلمة على أختها في النظم أو أخـرتها عنهـا ، كما أنها تختلف عن غيرها من اللغات في تكوين الجملة نفسها كتقديم الفعل على الفـاعل ، والمـوصوف على الصفـة ، وغير ذلـك مما يعـرفه كـل من يلم بلغة

(١) ابن عطية ١ / ٧٠ .

العرب وغيرها من اللغات الأوربية .

وللعرب طرق في القول ومعالجته ، ويكثر في كلامهم المجاز بشتى صوره ، ففيه الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الجميع ، والجميع مخاطبة الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، إلى غير ذلك .

يقول ابن قتيبة : وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب[1] .

فتوافر المجاز في العربية إذن - عند ابن قتيبة - دون غيرها من لغات العجم هو الذي يعجز عن الترجمة أو يفسدها ، وإذا جاز ترجمة الإنجيل والتوراة إلى سائر اللغات الأخرى ، فلا يجوز أن يترجم القرآن ، لأن الإنجيل والتوراة ليس فيهما من إعجاز القول ، وبلاغة التعبير حتى يقوم بواحد منهما التحدي كما هو الشأن في القرآن ، فمعجزة القرآن هي معجزة التعبير وما فيه من بلاغة وفصاحة لم يجر بها لسان أبلغ الناس وأفصحهم « وألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته . . . ، وما عداها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، والحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة[2] فترجمة القرآن إلى لغة أخرى تذهب بإعجازه ويصبح شأنه شأن كتاب عادي مهما حوى من أحكام وفضائل وشرائع ، فهو في النهاية يمكن مجاراته .

وقد تحدى الرسول العرب قاطبة أن يأتوا بسورة من مثله ، وليس من

(١) المشكل ١٦ .
(٢) المزهر ١ / ٢٠١ ، مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني ٣ .

الضروري أن يأتوا بمعاني القرآن نفسها ، وإنما في مثل القرآن ؛ لأن التحدي لم يكن فيما يحويه القرآن من أحكام وشرائع ، ولكن لما يحويه من نظم بديع وتركيب بليغ ، فإن أتوا بمثل نظمه من غير أن يكون صدقاً ، فقد أفلحوا وأظهروا حجتهم .

والترجمة تذهب بهذا النظم البديع ، وتفسد ذلك التركيب البليغ الذي تتميز به لغة القرآن ، ولنضرب لذلك مثلاً :

قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ الكهف ١١ .

إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه ، إذ لا يفهم غير حقيقة الضرب على الآذان خلال هذه المدة الطويلة التي استغرقها أهل الكهف داخل الكهف، وإن قلت أنمناهم سنين عدداً لكنت مترجماً للمعنى دون اللفظ ، وبمعنى آخر كنت مترجماً لتفسير القرآن ، وليس مترجماً للقرآن نفسه ، فالتصوير الذي نراه في الآية ، ويتمثل في الضرب على الآذان لا تستطيع الترجمة الحرفية أن تؤديه أو تفي به إلا بعد أن تفسد الصورة ، وتشوه ملامحها .

خذ مثلاً آخر قوله تعالى :

﴿ وإما تخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فانبِذْ إليْهم عَلَى سَوَاءٍ ﴾ الأنفال ٥٨ . ومعنى الآية : إن كان بينك وبين قوم هدنة فخفت منهم نقضاً للعهد ، فلا تبادر إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت ما بينك وبينهم ، فيكونوا معك على علم النقض والعود إلى الحرب مستوين[1] ، وبذلك لن تستطيع أن تترجم الآية القرآنية التي تتميز بإيجازها وإيحائها إلا بعد أن تبسط مجموعها ، وتطنب في شرحها ، لتظهر مستورها ، وبذلك تضيع حلاوة

---

(١) اللسان ماده نبذ

الكلام الذي ينبثق من خلال إيجازه البليغ ، وإيحائه البديع . ومن جهة أخرى فإنك لم تترجم الآية نصاً بألفاظها ، ولكنك ترجمت معناها وتفسيرها ، وهذه ترجمة للتفسير ، وليست ترجمة للقرآن .

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى :

﴿ والـذينَ إذا ذُكِّـرُوا بـآيـاتِ ربّهم لم يَخِـرُّوا عَلَيْهـا صُمّـاً وَعُميـانـاً ﴾ الفرقان ٧٣ .

فالمعنى الحرفي لقوله لم يخروا عليها صماً وعمياناً : سقطوا سامعين مبصرين لما أمروا به ونهوا عنه[1] ، فإن ترجمته ترجمة حرفية أي بمثل هذه الألفاظ استغلق المعنى ولم يفهم ، وإن عولت على ترجمة المعنى فقلت : لم يتغافلوا عن آيات ربهم أديت المعنى بلفظ آخر .

وهكذا عندما تكون الترجمة للمعنى وليست للفظ يتحول القرآن إلى تفسير ، وعندئذ لا يتكشف وجه الإعجاز الذي يقوم على الألفاظ وتلاؤم بعضها لبعض .

نادى ابن قتيبة بهذا الرأي في كتابه تأويل مشكل القرآن ، وهو قول فصل أخذ به كثير من العلماء مثل ابن فارس في كتابة الصاحبي ، والسيوطي في المزهر .

وأبو عبيد القاسم بن سلام الرومي الأصل ، والذي كان على دراية بلغات متعددة يذكر أن لكلام العرب خصوصية لا تشاركهم فيها لغة من اللغات ، ويقرر أن أحداً من الأمم لم يقدر على نقل القرآن إلى لغته ، لكمال لغة العرب ، على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله ، وتعذرت عليهم ترجمته .

---

(١) اللسان مادة خر .

وشيـخ الإسلام ابن تيميـة يرى أن القـرآن لا يقرأ بلغـة أجنبية سـواء كنا قادرين على قراءته بالعربية أو لم نقدر ، ويعقب على هذا الرأي بقوله : « وهو الصواب الذي لا ريب فيه ؛ بل قد قال غيـر واحد إنـه يمتنع أن تتـرجم سورة من القرآن أو ما يقوم به الإعجاز » .

وقد نقل عن الإمام أبي حنيفة جواز القراءة في الصلاة بالفـارسية ، لكن صـح رجوعـه عن ذلك ؛ لأنهـا ترجمـة غير معجـزة . وإذا جاز ذلـك لجازت الصلاة بكتب التفسير وهذا لا يقول به أحد[1] .

والنبي عليـه السلام والخلفـاء من بعده وجميـع الصحابـة مـا قرأوا في الصلاة إلا هذا القرآن العربي فوجب علينا اتبـاعهم ، وكيف يجوّز عـاقل قيـام الترجمة بأي لغة كانت وهي كلام البشـر ، مقام كـلام الخالق القـوي القادر . واعتمـد على ذلك الإمـام الشافعي فقـال : « إن تـرجمـة القـرآن لا تكفي في صحـة الصلاة ، لا في حق من يحسن القـراءة بالعـربيـة ، ولا في حق من لا يحسنها »[2] .

والرسول عليه السلام حين كان يبعث بكتبه إلى قيصـر الروم ، وكسـرى فارس ، ومقوقس مصـر ، وغيرهم ، كـان يضمن هذه الكتب بعض آيـات من القـرآن مكتوبـة بلغتها العـربية التي نـزلت بها ، دون أن يـأذن بتـرجمتهـا إلى الرومية أو الفارسية أو القبطية .

والصحابة أيضاً نهجوا نهج رسول الله في المحافظة على عربية القرآن ، فكتبوه بالحروف العربية ، لا باللغات الأخرى ، ولم يأذنـوا بترجمـة ، ولم يكن ذلك معـوقاً عن زحف الإسـلام إلى مشارق الأرض ومغـاربها ، أو مـانعاً من هـداية الناس بالقرآن ، فصيانة القرآن من التحريف والتبديل هي الأساس الذي اعتمد

(١) انظر نكت الانتصار للباقلاني ٣٣٧ ، والبرهان ١ / ٢٨٨ .
(٢) النيسابوري ١ / ٨ .

عليه الرسول والصحابة في منع ترجمة القرآن ، ولم يكن في ذلك تعطيل لدعوة الرسول ، أوْ حدّ من نشر الإسلام .

فالدعوة إلى ترجمة القرآن دعوة آثمة ظاهرها تيسير قراءة القرآن بين الناس جميعاً ، عرب وغير عرب ، ولكن القصد من ورائها ، والهدف الأساسي من ذيوعها ، إضعاف لغة العرب ، وإبطال معجزة القرآن .

الأمثال في القرآن

المثل : قول محكي سائر ، يقصد منه تشبيه حال الذي حكى فيه ، بحال الذي قيل لأجله . ويجتمع في المثل أربع صفات لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة[1] .

قال أبو عبيد : الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت توشي كلامها فتبلغ بها حاجاتها بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه وقد ضربها النبي عليه السلام ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف[1] .

والأمثال لا تُغَيّر ، وإنما تبقى بصيغتها التي وردت بها ، وكما وقعت في الأصل ؛ لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ، ولا تستعمل فيها الإعراب .

تقول : « الصيفَ ضيعتِ اللبن » مكسورة التاء ، سواء خاطبت بها المذكر أو المؤنث ، المفرد أو المثنى أو الجمع ؛ لأن أصل المثل خوطبت به

---

(١) المزهر ١ / ٤٨٦ .

امرأة لجئت إلى زوجها العجوز الغني تطلب منه العون ، بعد أن طلبت طلاقها منه لتتزوج بشاب فقير ، فقال لها هذا المثل . ويضرب لفوات الفرصة ، وطلب الشيء بعد فقده .

ومن أمثالهم : « أعْط القوس بَارِيها » يضرب لمن يتصدى لشيء لا يحسنه ، ويطلب أن يتركه لمن يجيده . فالياء في « باريها » ساكنة ، وتبعاً للإعراب يجب أن تكون متحركة بالفتح ؛ لأنها مفعول ثان لأعط .

وضرب الأمثال يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير والوعظ ، والحث والزجر ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص فتثبت في الأذهان ، ومن ثم كان الغرض من المثل : المبالغة في الإيضاح والبيان ، حتى يصير الخفي جلياً ، والغائب مشاهداً ، والمتخيل كالمتحقق ، والمتوهم كالمتيقن .

وقد كثرت الأمثال في القرآن وفي سائر الكتب المقدسة ، وفي الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال .

وقد أبرز علماء البلاغة قيمة التمثيل وأثره في النفس ، وكيف يودع في التعبير من الجمال والأسرار ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

يقول عبد القاهر « اعلم أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها وشب من نارها .

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفس وأعظم .

وإن كان ذماً كان مسّه أوجع ، ووقعه أشد .

وإن كان حِجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر .

وإن كان افتخاراً كان شأوه أمد ، وشرفه أجدّ .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخْلب .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر .

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه[1] .

والزمخشري يرى أن لاستحضار العرب للأمثال شأناً ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، ولأمرٍ ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه من الأمثال[2] ؛ لأن الأمثال تصور المعاني تصوير الأشخاص ، والأشخاص أثبت في الأذهان ، لاستعانة الذهن فيها بالحس ، بخلاف المعاني المعقولة ، فإنها مجردة عن الحس ، ولذلك تكون دقيقة وخفية .

وأمثال القرآن قسمان :

قسم صريح واضح بأنه يدخل في الأمثال نظراً لورود لفظ ﴿مثل﴾ في الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذِي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ منها فأتبعهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغَاوِين ، ولوْ شِئْنَا لرفعْنَاهُ بِهَا ، ولكنّهُ أخْلَد إلى الأرْض واتّبعَ هَواه ، فمثَلُهُ كَمثلِ الكلْبِ إنْ تحْمِلْ عليهِ يلْهثْ أو تتركه يلهث ﴾ الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦ .

فضربت صورة الكلب في لهثه الدائم : إن شددت عليه وأجهدته لهث ، وإن تركته على حاله لهث ؛ لأن اللهث طبيعة فيه ، ضربت هذه الصورة مثلاً للكافر التارك لآيات الله ، الحريص على مظاهر الحياة ، وقد سيطرت عليه فلا يصلحه شيء ، إن وعظته فهو لحرصه لا يقبل الوعظ ، وإن تركت وعظه فهو حريص ، لأن الحرص طبيعة فيه .

---

(١) الأسرار ١٣٠ ط الاستقامة .
(٢) مقدمة تهذيب الأمثال للميداني ط حجازي ، الشيخ أحمد فهمي محمد .

وقوله تعالى : ﴿ واضْرِبْ لهمْ مَثَلَ الحياةِ الدنْيَا كماءٍ أنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاختلط به نباتُ الأرضِ فأصبَح هَشِيماً تَذْروهُ الرياحُ ﴾ الكهف ٤٥ فضرب صورة النبات في خضرته ونضرته ، ثم ذبوله وجفافه ، ثم تفريق الرياح له ، وانتشاره هنا وهناك ، هذه الصورة المتقلبة التي لا تستقر على حال ، ضربت مثلاً لحال الدنيا الفاتنة الفانية .

وقوله تعالى : ﴿ محمدٌ رَسُولُ اللّهِ والذينَ معَهُ أشدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهمْ ، تراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً ، سِيماهُم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثرِ السُّجُود ، ذَلكَ مثَلُهمْ في التَوْرَاةِ ومَثَلُهُمْ في الإنجيلِ كزرع أخْرَجَ شطْأَه فَآزَرهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتوى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزرّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الكفّار ﴾ الفتح ٢٩ .

الآية الكريمة ترسم لنا صورة الزرع الذي يبدو أول الأمر برعماً صغيراً ، ثم يستمر في نمائه حتى ينضج ويستقيم ، ويشتد ويغلظ ، ويثمر وتفوح منه الروائح الطيبة ، هذه الصورة ضربها الله مثلاً لصحابة محمد في قلتهم أول الأمر ، ثم كثرتهم وقوتهم عند انتشار الإسلام ، حتى ظفروا بإعجاب الناس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثلُ الذينَ يُنفقونَ أموالَهم في سبيلِ الله كَمثلِ حبةٍ أنبتتْ سبْعَ سَنابَل فِي كلّ سُنبلةٍ مائةُ حبّة ، واللّهُ يضاعفُ لِمنْ يَشاء ، والله واسعٌ عليمٌ ﴾ البقرة ٢٦١ ضرب الله الحبة التي تلقي في الأرض مثلاً لمن ينفق ماله في سبيل الله ، فالحبة الصغيرة تنبت السنابل العديدة ، والسنبلة تحتوي الحبوب الكثيرة ، فتزداد الحبوب وتتضاعف ، وهذا شأن الذي ينفق ماله في سبيل الله ، فهو قرض عند الله يوفيه جزاءه أضعافاً مضاعفة في الدنيا والآخرة .

والآيات القرآنية التي يتخللها المثل كثيرة كقوله تعالى :

﴿ يأيّها الذينَ آمنُوا لا تُبطِلُوا صَدَقَاتِكُم بالْمنِّ والأَذَى كالّذِي يُنْفِقُ ماله

رِئَاء الناسِ ولا يؤمنُ بـاللّهِ واليومِ الآخِـر ، فمثلُه كمَثلِ صَفْـوَانٍ عليهِ تـرابٌ فأَصَابَهُ وابلٌ فتركَهُ صَلْداً لا يقــدرون عَلى شيءٍ ممّا كَسَبُوا ﴾ البقرة ٣٦٤

وقـوله تعـالى : ﴿ ومَثـل كلمـةٍ خبيثـةٍ كشجـرةٍ خبيثـةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فـوقِ الأرضِ ما لها من قَرار ﴾ إبراهيم ٢٦

﴿ مَثل نورِه كمِشْكَاةٍ فيها مِصباحٌ المصباح في زجاجةٍ ، الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَة لا شرْقية ولا غربيّة ﴾ النور ٣٥ .

﴿ ضربَ اللّهُ مثلاً للذين كفرُوا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لُوطٍ ﴾ التحريم ١٠

﴿ وضرب اللّهُ مثلاً للذينَ آمنُوا امرأةَ فرْعَون ﴾ التحريم ١١ .

وهكذا يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتـذكرون ، وضـرب الأمثال في الآيـات الكريمـة السابقـة يرشـد عن الفكرة ، ويحـولها من شيء معنـوي إلى صورة محسوسة ، فتتأكـد في النفس وتستقر في الـذهن ، وتثبت في القلب ، والتنفير هنا في الآيات من أعمال الكافرين والمنافقين ، والذين ينفقون أموالهم مقـرونة بـالمن والأذى ، لا يكون مسـه أوجع ، وألمـه أشد إلا بعـد إبرازه في صـورة الأمثـال التي تقـرب المعـاني ، فتتــردد على الشفـاه ، وتجــري على الألسنـة ، فيتجافى النـاس عن اقترافهـا حين تتكشف لهم صورتهـا البغيضة ، وتخلف ظنهم حين يعتقدون أنهم سوف يجدون فيها نفعـاً ، وهم لا يخرجـون منها في الحقيقة بطائل .

وأما **القسم الثاني** ، فهو الأمثال الكامنة أو المطوية :

وهي الآيات القرآنية التي لم يصرح فيهـا بلفظ المثل ، وإنمـا يفهم من معناها ما يدل على أنها تضاهي مثلاً من الأمثلة المعروفة عند العرب .

وقد سئل أحد العلماء ، إنكم تزعمون أن القرآن قد حوى أمثال العـرب

والعجم[1] فهل تجد في كتاب الله (اتق شر من أحسنت إليه) ؟ قال نعم .

﴿ وَمَا نَقَمُوا إلاّ أنْ أغناهُمْ اللهُ ورسوله مِنْ فَضْله ﴾ التوبـة ٧٤ .

قلت : فهل تجد « كما تدين تُدَان » .

قال في قوله تعالى ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ به ﴾ النساء ١٢٣ .

قلت : فهل تجد فيه « لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ مَرَّتَيْن » .

قال : ﴿ هل آمَنُكم عليه إلاّ كما أمِنْتُكم على أخيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ يوسف ٦٤ .

قلت : فهل تجد « من أعان ظالماً سُلّط عليه » .

قلت : ﴿ كُتِبَ عليهِ أنّه مَنْ تَولاهُ فأنّهُ يُضِلهُ وَيَهدِيه إلَى عَذَابِ السعِير ﴾ الحج ٤ .

قلت : فهل تجد فيه قولهم « لا تلد الحيةُ إلا الحيةَ » .

قال : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إلاّ فاجراً كفاراً ﴾ نوح ٢٧ .

قلت : فهل تجد في القرآن قولهم « للحيطان آذان » .

قال : ﴿ وفيكُمْ سَمّاعُون لَهُم ﴾ التوبة ٤٧ .

ومن ذلـك أيضاً قـول علي رضي الله عنه « القَتْلُ أنْفَى لِلْقَتْلِ » ، وفي القرآن ﴿ وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَياة ﴾ البقرة ١٧٩ ومن ذلـك قول العـامة « من حفر لأخيه بئراً وقع فيهـا » وفي القرآن ﴿ ولاَ يَحِيقُ المكْـرُ السَّيّىءُ إلاّ بأهْلِه ﴾ فاطر ٤٣ ومن ذلك « مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ » وفي القرآن ﴿ وإنْ تُصِبْكُم سيِّئة يَفْرَحُوا بها ﴾ آل عمران ١٢٠ وواضح جداً مدى التكلف الذي يلجأ إليـه بعض العلماء لبيان أن القرآن قد حوى كل أمثال العرب والعجم ، فـالقرآن لم يقتصر على الأمثال ، حتى يستوعبها كلها ، ويكون حاوياً لهـا جميعاً ولم يكن ذلك هو الأساس في نزول القرآن ، فهو كتاب هداية للعقول ، ونور تستضاء به

(١) المعترك / ٤٦٨ ، الإتقان ٢ / ١٣٢ زهر الآداب ١٠٣٦ الحصري ط عيسى الحلبي .

الأفهام ، وفيه تنفير من التقاليد البالية والعادات الآثمة ، وما جدوى ذكر الأمثال وترديدها ، وهي قد ذكرت من قبل عند العرب والعجم ، وإنما يذكر القرآن الأمثال الصريحة أو الكامنة عندما تقتضيها سرد القصة ليزيدها وضوحاً وتأكيداً ، وتعلقاً بها أو نفوراً منها ، وأما قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا للناسِ في هذا القُرْآنِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ ﴾ أي « ردّدنا في القرآن من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه »[1] فالقرآن لم يشتمل على أمثال العرب والعجم جميعاً ، وإنما فيه كثير من المعاني الغريبة الحسنة التي تشبه الأمثال في غرابتها وحسنها :

كتمثيل الحق بالنور فيتأكد في القلب ويزداد تعلق الإنسان به .

وكتمثيل الباطل بالظلام فيستقر في النفس ويزداد نفور الإنسان منه .

ففي قوله تعالى : ﴿ أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فسالت أوْديةٌ بقدرها فاحْتَمَلَ السيلُ زبداً رَابياً ، ومِمّا يُوقِدُون عليه في النارِ ابتغاءَ حِلْيةٍ أوْ مَتاعٍ زَبدٌ مثلهُ ، كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ ، فأما الزبدُ فَيذْهَبُ جُفَاءً ، وأمّا ما يَنْفَعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك يَضْرِبُ اللهُ الأمْثَال ﴾ الرعد ١٧ فضرب الله الماء الذي ينزله من السماء فتسيل الأودية بقدرها مثلاً للإيمان والعلم الذي يسيل في القلوب كل قلب بقدره .

وضرب ما يحتمله السيل زبداً رابياً مثلاً لما تحتمله القلوب من شبهات وشهوات .

وضرب النار التي توقد على الذهب والفضة وغيرها من المعادن فيختلط بذلك زبد كالزبد يعلو السيل فيذهب جفاء ويبقى منه ما ينفع الناس فيمكث

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٤٠ .

بينهم ، ضرب ذلك مثلاً للإيمان والعلم الذي يمكث في القلوب بالتوحيد وعبادة الله وحده .

« فمثّل الإيمان مرة بالماء لما فيه من الحياة ، ومرة بالنار لما فيه من النور والبيان . والباطل بالزبد لخلوه من النفع وزوال البركة[1] » .

وهذه الأمثال الكامنة يستشهد بها في المواقف التي تتطلبها ، والأغراض التي تستدعيها ، لما فيها من دلالة قوية مؤثرة ، وإن لم يصرح فيها بلفظ المثل .

الأمثال المرسلة : ما يجري مجرى المثل .

وهذا النوع يختلف عن النوعين السابقين : الأمثال الصريحة التي يذكر فيها لفظة (مثل) والأمثال الكامنة التي تضاهي أمثالاً كانت معروفة عند العرب قبل نزول القرآن ولم يذكر فيها كلمة مثل .

فهذا النوع لا يحتوي كلمة مثل ، ولا يضاهي مثلاً من أمثلة العرب التي كانت معروفة وقت نزول القرآن ، وإنما اكتسبت صفة المثل بعد نزولها القرآن ، لما فيها من حكمة بليغة ترتكز على مبدأ خلقي ، أو عقيدة . وقد ذكر السيوطي ثلاثين آية تجري مجرى المثل[2] :

وقال هذا النوع البديعي هو المسمى إرسال المثل ، كقوله تعالى :
﴿ ليسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَة ﴾ النجم ٥٨ .
﴿ قُضِيَ الأمرُ الذِي فيهِ تَسْتَفْتِيان ﴾ يوسف ٤١ .
﴿ وحِيلَ بينهمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهون ﴾ سبأ ١٤ .
﴿ لكل نبأٍ مُسْتَقَرّ وسَوفَ تَعْلَمُون ﴾ الأنعام ٦٧ .

(١) الطبري ١٣ / ٩١ ، البرهان ١ / ٤٩٣ .
(٢) المعترك ١ / ٤٧٠ ، الاتقان ٢ / ١٣٣ .

﴿ ما عَلى المُحسِنينَ مِنْ سَبيل ﴾ التوبة ٩١ .
﴿ كَمْ مِنْ فِئة قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذْنِ الله ﴾ البقرة ٢٤٩ .
﴿ لا يكلّفُ الله نَفْساً إلاّ وُسْعها ﴾ البقرة ٢٨٦ .
﴿ ظَهَرَ الفَسَاد في البَرِ والبَحْرِ ﴾ الروم ٤١ .

القرآن والمفسرون

من بين الطوائف التي أسهمت بنصيب وافر في بيان بلاغة القرآن طائفة المفسرين ؛ لتناولهم آيات القرآن الكريم وإبراز ما فيها من جمال فني ، وروعة أخّاذة حتى نرى علماء البلاغة فيما بعد يستشهدون في قواعدهم البلاغية بأمثلة من القرآن سبقهم إليها المفسرون في الاستشهاد بها ، « وقد احتاج المفسرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله من غرائب التراكيب ، وتبيان الطرق التي تنزع بواسطتها المعاني ، وإبراز النكت البيانية التي تضمنت شيئاً من أسرار الجمال ووجوه البلاغة[1] » عندما كثر دخول الأعاجم في دين الإسلام ، وفسد الذوق ، ولم يكن لهم دراية بأساليب العرب البيانية :

فمعرفة ألفاظ القرآن ، وفهم معانيه ، وإدراك أغراضه وأبعاده ، هو الهدف الذي يرمي إليه المفسر ، ولا يمكنه أن يقف على شيء من ذلك إلا إذا كان على قدم راسخة في علوم اللغة بصفة عامة ، وعلوم البلاغة بصفة خاصة . والزركشي يفرد فصلاً (فيما يجب على المفسر البداءة به) يستهله بقوله :

« الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية ، . . . والنظر في

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١ / ١٣ مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ .

التفسير هو بحسب إفراد الألفاظ وتركيبها ، أما الإفراد فهي تتعلق بعلوم اللغة والتصريف ، والاشتقاق ، وأما التركيب فهو متعلق بعلوم النحو والمعاني والبيان والبديع »[1] .

وقد أثر القرآن تأثيراً كبيراً في نشأة البلاغة وتطورها حيث كان هو المعجزة الكبرى التي تحدى بها الرسول العرب أن يأتوا بمثله أو بأقصر سورة منه ، على ما اشتهروا به من فصاحة وبلاغة ، ودعاهم هذا التحدي إلى المقارنة بين أسلوب القرآن وما يزخر به من صور بيانية ، وألوان بديعية فوق ما عليه من جمال في النظم وروعة في التعبير ، وبين أساليبهم الراقية الأخاذة من شعر ونثر .

وقد كان التأمل في أسلوب القرآن وتفهم أسراره البيانية دافعاً لظهور الدراسات القرآنية ، ومدعاة للبحوث البلاغية التي ألفت بغزارة منذ نهاية القرن الثاني الهجري في كتب تناولت القرآن وما فيه من معان ومجاز ونظم وإعجاز . ويذكر ابن النديم أن « واصل بن عطاء ، والكسائي ، والأخفش ، والرؤ اسي ، ويونس بن حبيب ، وقطرب النحوي ، والفراء ، وأباعبيدة ، والمبرد ، وابن الأنباري ، والزجاج ، وخلف ، ألفوا جميعاً في معاني القرآن ، وأن أبا عبيدة ألف مجاز القرآن ، والجاحظ نظم القرآن وكتاب المسائل في القرآن ، وبشر بن المعتمر تناول متشابه القرآن ، والواسطي وابن الأخشيد لكل منهما كتاب في نظم القرآن ، وابن الراوندي له كتاب في الطعن على نظم القرآن[2] وثمة جهود أخرى بذلت في تصنيف كتب تناولت القرآن للكشف عن خصائصه وشرح غريبه ، وتأويل مشكله ، والتعرف على جمال أسلوبه ، وبيان أثره في النفوس ، منها ما صنعه ابن قتيبة ، والطبري ، والرماني ، وأبوعلي الفارسي ، وابن

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ١٧٣ ، والإتقان في علوم القرآن ٢ / ١٨١ .
(2) الفهرست ١ ، ٥ ، ٥١ ، ٥٧ .

جني ، والباقلاني ، والشريف الرضي ، وعبد القاهر والزمخشري ، والعلوي ، والزركشي ، والسيوطي .

وقد كانت هذه الدراسات من أهم العوامل التي ساعدت على نشأة البلاغة . وأمدتها بفيض زاخر من الملاحظات البيانية التي أثرت البحوث البلاغية على مدى القرون حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من عظمة على يد عبد القاهر الجرجاني حين نفذ إلى هذه الدراسات وشيد منها نظريته الكبرى في صحة النظم وفساده ، فالوقوف على إعجاز القرآن ، وإدراك نظمه واجتلاء أسراره لا يقوم إلا على تفهم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، وأبو هلال العسكري يؤكد ذلك بقوله « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف . . إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها[1] .

وقد كانت مسائل البلاغة مفرقة في كتب السابقين من المفسرين ، وخاصة كتابي مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) ومعاني القرآن للفراء (ت ٢١٠ هـ) وهذان الكتابان هما اللبنات الأولى في بناء صرح البلاغة العربية ، والنواة الطيبة التي أثمرت دراسات مفصلة ، وأبحاث واسعة في كتب اللاحقين من المشتغلين بفن البلاغة حتى وصلت إلى دور النضوج والكمال .

وواضح من عنوان كتاب الفراء أنه كتاب وضع أساساً لتفسير آيات القرآن وبيان معانيه : أما كتاب أبي عبيدة ، فإن بعض الباحثين[2] يؤكد أنه كتاب في التفسير لا في البيان .

وابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) يتعرض في تفسيره لكثير من أنواع

(١) الصناعتين . ١ .
(٢) مناهج تجديد ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٥٨ أمين الخولي .

المجـاز ويحلله تحليلاً دقيقـاً رائعاً ، وهـو في عرضـه لصـور البيـان ، وألـوان البلاغة في القـرآن يلتزم عـرض الأديب الذائق فـلا يجردهـا من الجمال ، ولا يعرِّيها من الرواء ، ويمتعنا بـأسلوبه وآرائـه كما تـرى في تفسير قـوله تعـالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَـةَ بِالهُـدَى فَما رَبِحَتْ تِجَـارَتُهُمْ ﴾[1] يقول فـإن قال قائل فما وجه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم ، وهل التجارة ممـا تربـح ، أو توكس، قيل: « إن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عرباً فسلك في خطابه إياهم مسلك خـطاب بعضهم بعضاً وبلغـاتهم المستعملة بينهم ، فلما كـان فصيحـاً لديهم قول القائل لآخـر خاب سعيك ، ونام ليلك ، وخسـر بيعك ونحـو ذلك من الكلام الذي لا يخفى على سامعه ما يريد قائله ،خاطبهم بالذي هو منطقهم من الكلام فقال فما ربحت تجارتهم ، إذ كان معقولاً عندهم أن الربح إنما هو في التجارة ، كما أن النـوم في الليل ، فـاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلـك من أن يقال : فما ربحوا في تجارتهم وإن كان ذلك معناه[1] .

والرُّمّاني (ت ٣٨٦ هـ) الذي ترك لنا « النكت في إعجاز القـرآن » وهو يدور حول البلاغة وبيان وجوه الإعجـاز ، قد وضـع أيضاً تفسيـراً قيماً للقـرآن بلغت أهميتـه درجة عـظيمة حتى إن « الصـاحب بن عباد حين قيـل له : هـلا صنعت تفسيراً ؟ أجاب وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً[2] ؟ .

أمـا تفسير الكشـاف للزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) فهـو غني عن البيـان ، فقـد طبق فيه الـزمخشري القـواعد البـلاغية تـطبيقاً رائعـاً حين يتناول الآيـات القرآنية . وأضاف الجديد في علوم المعاني والبيان والبديع .

---

(١) البقرة آية ١٦ .
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ١ / ١٠٨ المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٣ .
(٣) المنية والأمل ص ٦٣ لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة حيدر أباد ١٣١٦ .

وبهذا يصبح واضحاً أن المفسرين وأصحاب الدراسات القرآنية كان لهم نصيب أيضاً في المشاركة في نشأة البلاغة ، والعمل على تطويرها ، ونشاط جم في البحوث البلاغية للتوصل بها إلى حقيقة الإعجاز .

وجوه إعجاز القرآن

محمد النبي الأمي الصادق تحدى العرب الذين بلغوا النهاية في حسن القول وبراعة الكلام ، تحداهم أن يعارضوا القرآن ، فهو كلام الله ، نزل به جبريل الأمين ، وما كان أمره كذلك ينبغي ألا يكون في طوع البشر مجاراته أو في مقدورهم محاكاته ، وقد سلك الرسول معهم سبل الحجاج ، فبدأ بالأصعب ثم تدرج إلى الأسهل ، وكلما عرض عليهم صوراً من التحدي أخفقوا واعترفوا بعجزهم . تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن ﴿ قلْ لئنِ اجتمعت الإنسُ والجنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بمثِل هذا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمثْلِهِ ، وَلوْ كَانَ بَعضُهْم لِبعْض ظَهيراً ﴾ الاسراء ٨٨ فصعب عليهم الأمر واستعصى عليهم القول ، فأراد الله أن يخفف عنهم ، فتحداهم ثانياً أن يأتوا بعشر سور من مثله ﴿ أم يَقُولُونَ افْتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَريَاتٍ ﴾ هود ١٣ ، فلم يأتوا بهذه السور التي تعد على الأصابع إذ لا قبل لهم بها ، ولا طاقة لديهم بمثلها ، فتدرج التحدي إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الأمر ، تحداهم بسورة واحدة فقط ، ليس شرطاً أن تكون في معنى السورة التي يعارضونها ، بل بأي معنى من المعاني ، ولكن في جمال نظم القرآن وإبداعه : ﴿ وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نزّلنَا على عَبْدِنا فأتُوا بسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءكُمْ مِنْ

دونِ اللّهِ إنْ كنتمْ صـادِقين ، فـإنْ لمْ تَفعَلوا ولَنْ تَفعلـوا فـاتّقُـوا النَّـار التي وَقُودها الناسُ والحِجَارَةُ ﴾ البقرة ٢٣ ، ٢٤ . فالله وصف رسوله في هـذه الآية بالعبودية وأضاف العبودية إليه ، وهذا تشـريف للنبي وتقريب لـه ، حتى يكون الناس جميعاً عبيداً لله سبحانه لا يستكبرون عن عبادته ، وإن كانوا يرتابون في القرآن وأنه منزل من قِبل الله فليـأتوا بسـورة من مثله ، من طوال السـور أو من قصارها ، وفي ذلك تقريع للمعانـدين وسخريـة من المكابـرين . وتنديـد بمن يرتاب في معجزة الرسول الأمي ، ثم اشتد القرآن في القسوة عليهم حين تندر بهم وطـالبهم أن يـدعـوا من دون الله : من النـاس أو الأوثـان من يشهـد لهم بصـدقهم وقدرتهم ، وحسب محمـد أن يكون الله قـد شهـد لـه بـالصـدق في دعواه .

ثم زاد أمـر التحـدي والإصـرار عليـه ، ولكن طـاقتهم أضعـف من احتماله ، ولـذلك يقـرر القرآن في حـزم شديـد مخاطبـاً المعانـدين ﴿ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ البقرة ٢٤ بأنهم ما استطاعوا ذلك في المـاضي والحاضـر ولن يستـطيعوا أيضـاً في المستقبـل . فـالخـطاب للبشـر جميعـاً ، وفي عصـر الرسول وبعد عصر الرسول ، ولكل الأجيال المقبلة ، فهم عاجزون وإن كـانوا لا يستجيبـون ؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعـهم وعـلى أبصـارهـم غشاوة ، فألبسوا الحق بالبـاطل ، وتمـادوا في جهلهم ، وأصروا على عنـادهم واستكبروا استكباراً .

الصِّـرْفَـة

وإذا كـان الرسـول عليه السـلام قد طـالبهم في دعوتـه بتـرك أديـانهم ، وهجر أوثانهم والتضحيـة بأمـوالهم وبذل أنفسهم في سبيـل الله ، وأن يصبروا ويصابروا ، وأن يتخلوا عن كل ما ألفوه مما يتنافى مع الرسالة الجديـدة ، فقد شق الأمـر على نفوسهم ، ونـاءت به كـواهلهم ، وهم قد درجـوا على الأنفـة

والحمية الجاهلية ورفض الخضوع ، والإذعان للطاعة ، كل هذه الصفات جعلت العرب في موقف الدفاع عن التقاليد والتمرد على الرسالة المحمدية ، فتوافرت الدواعي لديهم لإبطال حجة الرسول ، وقهره أمام الناس أجمعين . إذن فدواعي المعارضة للمعجزة التي أتى بها محمد للدلالة على صدقه متوافرة ، فإذا لم يقدروا على المعارضة ولم يجدوا إليها سبيلاً ؛ كان ذلك دليلاً على عجزهم ، وهل ثمة علامة للعجز أكبر من ذلك ؟

وليس أعجب من قول النظّام[1] أحد علماء المعتزلة ، من أن القرآن نفسه غير معجز فهو في رأيه كتاب مثل سائر الكتب ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم : أي أن الإعجاز في المنع وليس في القرآن ، إذ أن العرب فيهم ذلاقة لسان وانطلاق عبارة ، وهم قادرون على حَوك الكلام وصياغته في أسلوب جميل خلاب أي أنهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بلاغة وفصاحة ، ولكن الله صرف هممهم عن مجاراة القرآن ، والرجل إذا كان قادراً على القيام بشيء وعنده الحافز والرغبة في القيام به فسيقوم به لا محالة ، فإذا توفرت له الأسباب من قدرة وحافز ورغبة ثم لا يستطيع القيام به فذلك شيء خارج عن العادة ، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه . « كأن يأتي مثلاً نبي ومعجزته في تحريك يده ، ويطلب من القوم تحريك أيديهم فيعجزون رغم صحة أبدانهم ونشاط جوارحهم ، فلما لم يقدروا كان ذلك دليلاً على صدقه »[1] .

والأمر كذلك بالنسبة للقرآن ، فهو معجزة الرسول ، وطلب من القوم أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة ، فيظهر عجزهم رغم فصاحتهم وبلاغتهم ، وقد

---

(١) الالوسي ١/٢٧ الملل والنحل ١/٦٧ ، أمالي المرتضى ١/١٨٧ .
(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ٢٠ .

وجدوا في أنفسهم ما يشبه الآفة حين عرض عليهم ما يحيل السهل صعباً ، وإذا كان العائق خارجاً عن العادات صار كسائر المعجزات .

وهذا دليل ظاهر على أن أمر المعارضة ليس بأيديهم ، وإنما هو خارج عن طوقهم ، إذ لا يخفى على ذوي البلاغة أن صارفاً إلهياً قد صرفهم عنها ، وهذا يفيد أن القرآن ليس من صنع البشر ، وإنما هو معجزة الله لنبيه محمد عليه السلام ، وأيّ إعجاز أعظم من أن يعجز البلغاء عن معارضة قول في الظاهر ، صرفهم الله عنه في الباطن .

والقول بالصرفة مردود « لأن العرب ما تكلموا بمثل القرآن قط ، ولم يأت منهم نظيره قبل مبعث النبي ، ولو نظموا مثله قبل مجيء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا وإنما صرفنا الله عنه ، ولكنهم لم يقولوا ذلك ، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا في الحاضر ولا في المستقبل »[1] .

وإذا كان الله هو الذي سلبهم القدرة على الاتيان بمثله ، فيكون المنع من الله هو المعجز ، وليس في القرآن صفة الإعجاز ، ولا يتميز بفضيلة عن غيره ، مع أن الإجماع متفق على إضافة الاعجاز للقرآن .

والقول بالصرفة فاسد أيضاً بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ ﴾ الآية . . . الاسراء ٨٨ « إذ لو أن الله صرفهم وسلب عنهم القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لأنه يكون بمثابة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل به »[2] .

فالقول بالصرفة نظرية لا نشك في خطئها ، وفيها مساس بالذات العليّة لا يليق بمسلم أن يعتقده .والحقّ أن الاتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من الخلق ، فالعربي الفصيح كان يصنع الخطب أو يقرض القصيدة

(١) نكت الانتصار ٢٨٩ .
(٢) الاتقان ٢/١١٨ .

ويستفرغ فيها كل جهده ويعود عليها بالتنقيح المرة تلو المرة ، وقد يستغرق ذلك حولاً كاملاً ، فإذا أعطيت لنظيره عالجها بالتبديل والتنقيح ثم لا يزال الأمر كذلك موضع تغيير وتحوير .

أما كتاب الله فلو نزعت منه لفظة ، أو أردت أن تغير فيه كلمة ما استطعت أن تأتي بلفظة أو كلمة أخرى أفضل منها ، وإذا كان العربي القديم يتميز بحسه اللغوي وقريحته النفاذة وظهرت له براهين البراعة في نظم القرآن وعجز عنها ، فإننا الآن على العجز أظهر ، وبالتسليم أولى ؛ لأننا قاصرون عن مرتبة العرب الأقدمين في سلامة ذوقهم اللغوي ، وجودة قريحتهم في تأليف الكلام ، ولو كان الاعجاز بالصرفة لما استعظموا فصاحة القرآن وتعجبوا لبلاغته وحسن فصاحته ، والرواية المشهورة عن إعجاب الوليد بن المغيرة بالقرآن وحلاوته عند الإصغاء إليه أعظم شاهد على ذلك .

الإخبار عن المستقبل

وزعم قوم أن إعجاز القرآن مصدره فيما تضمن من الإخبار عن الغيب ، وعن أشياء سوف تحدث في المستقبل ، وقد تأكد صدق هذه الأخبار بوقوعها ، وذلك ليس في قدرة البشر ولا طاقة لهم به ، فمن وعد الله لنبيه[1] أنه سيظهر دين الإسلام على الأديان كلها حين قال له ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون ﴾ التوبة ٣٣ وقد تحقق وعد الله لنبيه فظهر الإسلام على غيره من الأديان الأخرى وانتشر في شتى البقاع ، وأصبحت له الغلبة حيثما كان . ولذلك كان أبو بكر رضي الله الله عنه إذا أرسل جيوشه للغزو عرفهم بوعد الله وأطلعهم على نصرته لدينه الحنيف، حتى يثقوا بالنصر ويتيقنوا من الفوز ، وراهن أبو بكر الصديق في ذلك وصدق الله وعده .

---

(١) إعجاز القرآن ٧٢ ، التمهيد ١٣٠ ، المعترك ١/ ٢٣٩ .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل كذلك في أيامه ويعدهم بالفتوح ونشر الإسلام . فما وعدهم ربهم حقاً ، ولا بد أن وعده يمضي وينفذ . ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ النور ٥٥ وكان ذلك ما وعدهم الله تعالى فاستخلف الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُون وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّم وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ آل عمران ١٢ أي قل لليهود الذين مالأوا قريشاً بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، وتمردوا عليك بنقض العهد: إنكم ستغلبون في القتال كما غلب المشركون في بدر ، وصدق الله وعيده فانقلبوا مهزومين مدحورين .

وقال في أهل بدر ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ الأنفال ٧ فقد وعد الله رسوله الظفر بإحدى الطائفتين : إما العير - وهي الإبل التي تحمل أموال المشركين التي تجلبها معها من الشام إلى مكة ، وإما النفير - وهم المشركون الذين استنفرهم أبو سفيان لقتال المسلمين وحماية للعير ، فلما نجت العير لم يبق غير النفير ؛ لأن الله أراد الخير للإسلام فمكن المسلمين من أعدائهم وأعز الله الإسلام بنصرهم وهلاك أئمة الكفر وصناديد قريش في هذه الغزوة .

وكقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ القمر ٤٥ .

وقد كان ذلك يوم بدر ، فهي من دلائل النبوة والاعجاز ، وقد نزلت قبل فرض الجهاد .

وكقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنّ المسْجِدَ الحَرامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لَا تَخافُونَ فَعلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجعلَ مِنْ دُونِ ذَلكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ الفتح ٢٧ .

أخبر الرسول عليه السلام أصحابه أنه رأى في منامه قبل الحديبية أنه حلق وقصر ومعه أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة ، فلما عادوا دون ذلك ، قال المنافقون ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام فنزلت الآية ، ولكنهم في العام القابل دخلوا المسجد الحرام آمنين ومنهم من حلق ومنهم من قصر ، وعلم الرسول المصلحة في الصلح عام الحديبية وعدم دخول مكة ، حتى يتم للمسلمين بهذا الصلح وبفتح خيبر في هذا العام ، القوة على أعدائهم .

وقال في قصة المخَلَّفين من الأعراب في غزوته ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أبداً ولنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عُدُوّا ﴾ التوبة ٨٣ فصدق في ذلك وتحقق ما قال، ولم يخرج معه أحد من المنافقين الذين خوطبوا بذلك ، ومكثوا مع المتخلفين عن الجهاد شأن النساء والصبيان .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون فِي بِضْعِ سِنِين ﴾ الروم ١ - ٣ فقد هزم الفرس الروم قبل الهجرة ، وشق على المؤمنين هزيمة الروم لأنهم أهل كتاب ، وفرح المشركون بنصر الفرس لأنهم ليسوا من أهل الكتاب ، وقد وعد الله في هذه الآية بنصر الروم على الفرس ليفرح المؤمنون بنصرة أهل الكتاب وقد كان ، فقد نشبت الحرب بينهما بعد سبع سنين ، وانتصر الروم على الفرس ، كما أخبر الله تعالى ، وكان ذلك من الآيات الباهرة الشاهدة بصدق نبوة محمد عليه السلام ، ومن دلائل إعجاز القرآن لما فيه من الإخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ النصر ١ - ٣ وقد تحقق ذلك ودخل الناس أفواجاً في دين الله ، وما مات عليه السلام وفي

بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام .

ومثل هذه التنبؤات كثيرة ويمكن تتبعها في القرآن ليظهر لنا أن القرآن قد تحدث عن أمور غيبية تحدث في المستقبل، منها ما قد تحقق على سبيل القطع ، ومنها ما سوف يتحقق وليس على سسيل التخمين أو الظن، مما يدل على أنه من أخبار علام الغيوب سبحانه وتعالى كأخبار القبر ، والبعث ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، والعقاب ، والجنة والنار ، والميزان والصراط ، وأحوال المتنعمين والمعذبين ، كل ذلك ذكر إجمالاً أو تفصيلاً في القرآن الكريم بما يعجز الفصحاء عن معارضته ومقابلته .

وقد يرى إعجاز القرآن في الإخبار بالغيوب من تمكن الإيمان بالله في قلبه ، واستقرت نبوة محمد في نفسه ، فيجد في هذه الأخبار دليلاً على صدق محمد، وبالتالي دليلاً على أن القرآن معجز ؛ لأن المألوف في الإخبار بالغيب أن يقع مرة ويتخلف أخرى عند عامة الناس أو صفوتهم من المشتغلين بهذه الأمور ، فدلالته ليست قاطعة على صدق المتحدث بهذه الأخبار في كل الأحوال ، أما ما جاء في القرآن من الأخبار الغيبية فقد تحقق على سبيل اليقين والجزم ، وليس على سبيل الظن أو الاحتمال ، فيميل إليها قلب المؤمن ويتشبع بها ويسلم بفاعليتها واعتبارها دليلاً على الإعجاز .

ونحن إن كنا لا نشك في أن هذه الأخبار وما أشبهها نوع من أنواع إعجاز القرآن إلا أنه « ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ البقرة **٢٣** من غير تعيين فدل على أن إعجاز القرآن في غير ما ذهبوا إليه من الإخبار بالغيوب ، لأن كثيراً من السور اشتملت على الحكم والآداب والأمثال ولم تشتمل على

الأمور الغيبية[1] » . كما أن العرب يكون لهم العذر أيضاً إذا قالوا إننا قادرون على معارضة القرآن ، متمكنون من الإتيان بمثله ، غير أنه يشتمل على ما لا يمكننا معرفته من الأمور الغيبية ، ولكن أحداً منهم لم يقل ذلك ، ولم ينسب عجزه عن مجاراة القرآن لهذه الغيبيات .

بل أن التنبؤ بالمستقبل قد ورد في غير القرآن من الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل :

فنرى المسيح يبشر برسالة محمد حين يذكر القرآن على لسان عيسى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بعدي اسْمُهُ أَحْمَد﴾ الصف ٦ وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾ الأعراف ١٥٧ . ففي مثل هذه الآيات حديث عن النبي وتنبؤ عن أحواله وعما سوف يأتي من أجله أيضاً .

ومن جهة أخرى لم يسمع بأن اليهود أو النصارى قد ادّعوا الإعجاز للتوراة أو الإنجيل ، ولا ادّعى لهم المسلمون ذلك ، ولم يقع بهذه الكتب التحدي ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن .

أخبار الأمم البائدة

ومن الوجوه المعجزة في القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة[2] وقصص الأولين ، وسير الماضين ، وما حدث معهم أو كان في عصرهم ، وهذا أمر لا يمكن تحصيله إلا بمعرفة القراءة والكتابة وكثرة الاطلاع ومجالسة العلماء وأهل السير والأخبار والأخذ عنهم . والرسول

(١) انظر بيان إعجاز القران ٢١ ، الطراز ٣/٣٩٨ .
(٢) إعجاز القرآن ٣٤ ، ٧٢ ، التمهيد ١٣٠ ، ١٣١ .

عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولم يكن أيضاً ممن عرف بمجالسة أهل السير والأخبار وتلقى العلم على أيديهم ، ولو كان يختلف إلى العلماء والمشتغلين بصناعة الأخبار ما خفي أمره على أحد ، فإذا انتفت عن الرسول صفة القراءة والمدارسة كان من البدهي أن وقوفه على هذه الأخبار من لدن الله وتأييد من وحيه ، وهذا وجه الإعجاز في القرآن ، فقد حكى هذه الأخبار حكاية من شهدها وحضرها ﴿ قَدْ جاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعليْهـا ومَا أنـا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ ، وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ وَلِيقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ الأنعام ١٠٤ و١٠٥ ليس الأمر كما زعموا أن الرسول كان يدرس ، وإنما ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنّ العَاقِبَةَ لِلْمتّقِين ﴾ هود ٤٩ .

ولذلك يتحدث القرآن عن قصص الأنبياء ، كقصة آدم عليه السلام وخروجه من الجنة وتوبته .

وقصة نوح عليه السلام مع ابنه العاصي وعناد قومه وما كان بينه وبينهم ، وانتهى إليه أمرهم من الغرق في الطوفان .

وقصة إبراهيم عليه السلام وتحطيم الأصنام ، ثم إلقائه في النار التي تحولت برداً وسلاماً ، ورؤيته في المنام بذبح ابنه ، وافتدائه بذبح عظيم ، ثم بناء البيت الحرام الذي جعل مثابة للناس وأمنا ، ومشاركة إسماعيل له، ودعاء إبراهيم ربه أن يجعل هذا البلدآمناً،وأن يرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

وحكاية سليمان مع الهدهد وبلقيس معروفة في سورة (النمل) ، وقصه يوسف عليه السلام منذ صباه حين أطلع أباه يعقوب ﴿ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِينَ ﴾ يوسف ٤ وكيد إخوته له وإلقائه في الجبِّ ، ومراودة امرأة العزيز له ، واتهامها إياه بأنه أراد بها سوءاً ، ودخوله

السجن ، ثم تفسيره لرؤيا الملك ، وثقته به وتنصيبه ولياً على خزائن الأرض ، وملاقاة إخوته مرة أخرى ، وحجز أخيه بنيامين ، إلى أن انتهت القصة بلقاء أبويه وسجود الجميع له تحقيقاً لرؤياه السابقة في مطلع صباه .

أما قصة موسى عليه السلام، فقد جاءت في ثلاثين موضعاً من القرآن، مفصلة تفصيلاً دقيقاً منذ مولده إلى ترك بني إسرائيل تائهين في الصحراء ، والتقائه بالخضر الذي لم يستطع معه صبراً .

وحكاية عيسى ابن مريم عليه السلام مذكورة في القرآن منذ مولده العجيب إلى أن رفعه الله إليه .

وقصص إسحق ، ويعقوب ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وعاد ، وثمود ، ولوط ، وشعيب ، وصالح ، وإدريس ، وذي الكفل ، وزكريا ، ويحيى ، وإلياس . وليس هؤلاء المذكورين في القرآن هم جميع الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله لعبادة مبشرين ومنذرين ، والله يقول لنبيه : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُم عَلَيك ﴾ النساء ١٦٤ .

فعدد الأنبياء لا يحصى ، وقد ذكر بعض المفسرين ، « أن عددهم يبلغ ثمانية آلاف رسول : أربعة آلاف من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس أجمعين [١] » .

هذه الأقاصص التي جاءت في القرآن على لسان محمد أدهشت عقول المشركين ، وحيرت ألبابهم ، ودعتهم أن يزعموا أنه كان يدرس التاريخ خفية ، ويقرأ الكتب خلسة ؛ ولكن الله نفى عنه افتراءهم ، وفضح زعمهم وكشف كذبهم ، وجزم القرآن بأن محمداً لم يكن لديه هو ولا قومه علم بهذه

---

(١) تفسير الجلالين النساء ١١٤ .

الأنبياء ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ العنكبوت ٤٨ .

فورود هذه القصص في القرآن ليس من افتراء محمد ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ، ولا يخبر بشيء من تلقاء نفسه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم ٤ « وهذه الأنبياء دليل إعجاز القرآن إذ ليس في وسع بشر أن ينبىء بمثل هذه الأخبار عن الماضي ، وربما كان ذلك لأن الماضي الذي يخبر عنه محمد سابق على كل تسجيل ، أو مما يجوز أن نجد له أثراً في وثيقة[1] » .

ورغم ما ذكر من قصص الأنبياء في القرآن ، والتأكيد بأن محمداً النبي الأمي لم يكن له عهد بمثل هذه القصص لا عن طريق الدراسة ولا عن طريق مخالطة الأحبار اليهود ، ولا الرهبان المسيحيين ، وأنّى له أن يعلم ما يعلم من تلك القصص المفصلة ، ويحيط بهذه الأنباء الدقيقة وهو الصادق الأمين في أقواله وأفعاله ، وأنّي له أن يعلم ذلك إن لم يكن بوحي من الله وتأييد من لدنه ، ورغم ذلك كله لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي القائل بأن مرجع الإعجاز في القرآن إلى ما فيه من هذه الأخبار والقصص ؛ لأن ذكر الأنبياء وقصصهم لم يرد في القرآن وحده ، بل ورد في غير القرآن من الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم .

الإعجاز العددي

ذكر بعض الباحثين المعاصرين[2] أن التماثل في الأعداد والتكرار في الأرقام هو صورة من صور إعجاز القرآن التي لا يمكن للباحث أو الدارس أو القارىء أن يستعرضها، إلا وهو يؤمن الإيمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى لآخر أنبيائه وخاتم رسله ؛ لأنه شيء فوق القدرة وأبعد من حدود العقل البشري . فهذا

(١) المعقول واللامعقول ١٤٣ د . زكي نجيب محمود .

(٢) الإعجاز العددي للقرآن الكريم عبد الرازق نوفل ٨ - ١٠ ، ١٨١ - ١٩٢ .

الوجه من الإعجـاز وجه قـاطع ، ودليله العـدد والحساب ، والعـدد لا يختلف والحساب لا يخطىء .

فلفظ الدنيا مثلاً قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الآخرة .

ولفظ الشياطين قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الملائكة .

ولفظ الموت قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الحياة . وهذا التـوازن والتناسق العـددي في موضـوعات القـرآن لا يمكن أن يكون مصـادفة قـدرية أو حـادثة عفـوية ؛ لأنـه توازن مقصـود ، وتناسق غيـر محدود . وهـذه الأعـداد المتساويـة والأرقام المتمـاثلة في ألفاظ القـرآن التي تم تـوزيعهـا في الآيات توزيعاً دقيقاً ، أعظم من أن تحددها طاقات بشريـة أو أجهزة حـاسبة أو عقول الاكترونية .

ويرى الباحث أن التسـاوي في عدد الألفـاظ أو ما يـطلق عليه الإعجـاز العددي هو المرتبة الأولى للإعجاز ، ثم تأتي الآيات بعد ذلك قمة في البلاغة والبيان وروعة في الصياغة والإتقان : أي أن بلاغـة القرآن وفصـاحته تـأتي في المرتبة الثانية من وجوه الإعجاز بعد الإعجاز العددي الذي وضعـه الباحث في المرتبة الأولى .

هذه هي فكرة الإعجاز العددي كما تصورها الباحث وأراد أن يدلل على صحتهـا ويؤكدهـا من خلال ألفـاظ كثيرة سـاقها ، ثم أورد ألفاظاً تقـابلها في المعنى ليجـد أن الألفاظ ذكـرت بنفس القدر والعـدد الذي ذكـرت به الألفـاظ التي تحمل المعنى المقابل .

وهـذا الوجـه أقوى من أي وجـه آخر من وجـوه الإعجاز ؛ لأنـه وجه لا تختلف في نتيجتـه الآراء ولا تتعدد الاتجـاهات ، فهـو ليس بتفسير أو تـأويـل تتعارض فيه الاجتهادات وتتباين النـظريات ، ولكنـه حساب وأرقـام ، وحقائق

الحساب دائماً قاطعة ، وشواهد الأرقام أبداً دامغة .

وقد وجد المؤلف أن ما توصل إليه في هذا الشأن لابد أن ينشر وأن يذاع ، وأن يعرض على أوسع نطاق ، وإلى أبعد حد ليحمل الوجه الجديد للإعجاز القرآني : وهو الإعجاز العددي للقرآن الكريم .

ولعل من الطريف أن نقول إن فكرة الإعجاز العددي ليست حديثة أو نابعة في عصرنا الذي يهتم بالأرقام والحساب وشئون الاقتصاد ، وإنما هي فكرة قديمة ذكرها السيوطي في بعض كتبه حيث نراه يشير إليها بقوله : « وقال ابن سراقة في وجوه إعجاز القرآن :

ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب ، والموافقة والتأليف ، والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ؛ ليعلم بذلك أهل العلم والحساب أنه ﷺ صادق في قوله : إن القرآن ليس من عنده ؛ إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى عن أهل الحساب وأهل الهندسة(١).

ففكرة الإعجاز القائمة على الأعداد والحساب إذن كانت معلومة من قديم وقد طرقت من قبل ، إلا أنها لم تطرق بالتفصيل والتأكيد الذي أوضحه لنا مؤلف الإعجاز العددي ، فالبذرة وإن كانت سابقة إلا أن المؤلف المعاصر استطاع أن يتعهدها بالعمل والمراجعة حتى أنبتت شجرة عظيمة لها فروع وثمار .

ويجدر بنا أن نذكر بعض الملحوظات على هذا الوجه من الإعجاز نلتزم فيها الدقة والتحقيق سواء فيما تشابه من الألفاظ أو فيما اختلف ، ما دامت الحسابات والأعداد تلتزم بالدقة والإحصاء، ولا مجال فيها للتفسير أو التأويل أو الإجتهاد « لأن حقائق الحساب دائماً قاطعة وشواهد الأرقام أبداً دامغة » .

---

(١) المعترك ١/٢٢.

يقـول المؤلف « تساوى عـدد مرات ورود لفظ الشيـطان ، وعـدد ورود لفظ الملائكة في القرآن الكريم .

فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة في مثل النص الشريف :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوه عَدُوّاً ﴾ فاطر ٦

وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة في مثل النص الكريم .

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ الأنفال ١٢ (١)

والمقارنة هنا غير سليمة ؛ لأن الشيطان مفرد ، ولا يقابله لفظ المـلائكة جمعاً .

فالشيطان بالإفراد يقابله لفظ الملك .

والشياطين جمعاً يقابلها لفظ الملائكة .

فـالمقارنـة الصحيحة إذن لا تكـون بين لفظ الشيطان والمـلائكـة ، بـل تكون بين لفظ الشياطين والملائكة جمعاً .

ولفظ الشياطين ورد ١٧ مرة

ولفظ الملائكة ورد ٦٨ مرة

وكـذلك لفظ شيـطان لم يرد مثنى في القـرآن الكريم فلم يقـل شيطانين بينما لفظ ملك ورد مثنى في موضعين في مثل :

﴿وَقَـالَ مَا نَهَـاكُمَـا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَـرَةِ إِلاّ أَنْ تَكُـونَـا مَلَكَيْنِ﴾ . الأعراف ٢٠ .

فالتساوي مفقود في كل ما ذكرنا ، وما أشار إليه المؤلف من تمـاثل في الأعـداد بين الشيـطان والمـلائكـة لم يلتـزم فيـه بـالـدقـة ولم يجنح فيـه إلى الصواب .

---

(١) الإعجاز العددي ١٧ .

وينتقل المؤلف إلى مقارنة أخرى ليؤكد هذا التماثل العددي وهي المقارنة بين الحياة والموت[1] فيذكر أن :

لفظ الموت ومشتقاته قد تكرر **١٤٥** مرة .

ولفظ الحياة ومشتقاته قد تكرر **١٤٥** مرة .

فالتماثل بين العددين إجمالاً هو الذي يعمد إليه المؤلف هنا بين لفظ الحياة والموت ، ولكننا إذا بحثنا الأمر تفصيلاً ، والتزمنا بالمقارنة الصريحة الواضحة تبين للقارىء أن :

لفظ الحياة ورد **٧١** مرة في مثل :

﴿ المَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الحياةِ الدنيَا ﴾ الكهف **٤٦** .

ولفظ الموت وهو مقابل للفظ الحياة ورد **٣٥** مرة في مثل :
﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ﴾ قَ **١٩** .
ولفظ يحيي ورد **١٥** مرة في مثل :
﴿والله يُحْيي ويُمِيتُ ﴾ آل عمران **١٥٦** .
بينما ورد لفظ يميت وهو المقابل للفظ يحيي **٩** مرات فقط .
وقد تكرر لفظ حيّ **١٤** مرة في مثل :
﴿ وجَعَلْنَا مِنْ المَاءِ كُلَّ شيْءٍ حيّ ﴾ الأنبياء **٣٠** .
على حين تكرر لفظ ميت **١٢** مرة في مثل :
﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنّهُمْ مَيّتونَ ﴾ الزمر **٢٠** .
وقد تكرر لفظ أحياء جمعا **٥** مرات فقط في مثل :
﴿ ومَا يستوي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ فاطر **٢٢** .

بينما تكرر اللفظ المقابل للأحياء جمعاً **٢٠** مرة : **٣** مرات بلفظ

(١) المرجع السابق **٢٣** ـ **٣٣** .

الأموات ، و ١٧ مرة بلفظ الموتى في مثل : ﴿ والمـوتَى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ الأنعام ٣٦ .

وأمـا لفظ يحيا فعـلاً فقد تكـرر ٣ مـرات فقط في مثـل النص الكـريم ﴿ الّـذي يصْلَى النّارَ الكُبْـرى ثُمَّ لاَ يَمُوت فِيهَـا وَلاَ يحيَـا ﴾ الأعلى ١٢ ، ١٣ على أن لفظ يموت وهو المقابل ليحيا ورد ٥ مرات .

وكـذلك تكـرر لفظ نحيي ٣ مرات ، ولكن لفظ نميت تكـرر مرتين فقط في مثل :

﴿ إنّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتَ وَإلَيْنَا المَصِيرُ ﴾ قٓ ٤٣ .

وهكذا في كل ما نعقد المقارنة فيه بين اللفظ وما يقابله سواء أكان اسماً أم فعـلاً ، مفرداً أم جمعـاً أم مصدراً ، لم نجـد أثـراً للتـوازن أو التسـاوي أو التماثل ، مما يدل على عـدم القصد وجعله هـدفاً نصـل إليه في الـدلالة على الإعجـاز ، أمـا التمــاثـل الجمعي في لفظ الحيــاة ومشتقـاتــه ولفظ المـوت ومشتقاته ، فالمقارنة فيه غير معتمدة لأنها ليست قائمة على أساس سوى ، ولا تستبعد أنها جاءت عفواً .

ويضـع المؤلف عنـوانـاً عن البصـر والبصيــرة . . . والقلب والفؤاد[1] ويجعل المقارنة هكذا بين البصـر والبصيرة من جانب، وبين القلب والفؤاد من جانب آخر .

أي أن البصر والبصيرة بمعنى واحد ، والقلب والفؤاد بمعنى واحد .

وأن معنى البصر والبصيرة على الضد من معنى القلب والفؤاد .

ويسترسل : فيقول :

إن لفظ البصر والبصيرة ومشتقاتهما ورد في القرآن ١٤٨ مرة .

ولفظ القلب والفؤاد ومشتقاتهما ورد ١٤٨ مرة .

(١) المرجع السابق ٣٧ - ٤٣ .

وبشيء من إمعان النظر نجد أن المؤلف حين جمع بين البصر والبصيرة راعى في الكلمتين مجرد تكرار الحروف فقط : الباء والصاد والراء على الرغم من الاختلاف الشديد بينهما في المعنى .

فالبصر(١) : حاسة الرؤية التي نلحظ بها الأشياء ظاهرة مكشوفة ، ورجل بصير خلاف الضرير .

والبصيرة : هي الرؤية الداخلية الخفية التي يستشعرها المرء وتعتمد على الفطنة ، وتنبع من القلب .

والقلب (٢) : الفؤاد وقيل : مضغة من الفؤاد ، وقد يعبر بالقلب عن العقل ، قال الفراء في قوله تعالى : ﴿ إنّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لمنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ ق **٣٧** أي عقل .

والفؤاد(٣) : القلب لتفؤده وتوقده فهما مترادفان،وقيل الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبّته وسويداؤه . « والفؤاد في الاستعمال القرآني بمعنى وعاء العقل ، وقد منحه الله الإنسان ليفكر به ، كما منحه السمع ليسمع به والبصر ليبصر به ، ونجد هذا واضحاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الذي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ ﴾ الملك **٢٣** (٤) .

فالفؤاد وعاء الفكر وآلته ، كما أن الأذن آلة السمع ، والبصر آلة الرؤية ، أما القلب فهو وسيلة التفكير وأداته وعن طريقه نميز بين الأشياء، أي أن القرآن يستخدم كلمة القلب فيما نسميه اليوم العقل .

فالبصيرة تختلف عن البصر وتبتعد عنه ، وتتشابه مع القلب وتقترب منه : فوضع البصر مع البصيرة كما ذهب المؤلف لم يراع فيه سوى الشكل ، وإلا فهي مجافية للبصر في المعنى ، والمقابلة بين البصيرة وبين القلب

(١) اللسان مادة بصر .

(٢) اللسان مادة قلب .

(٣) اللسان مادة فاد .

(٤) أنظر من بلاغة القرآن ٦٠ ، ٦١ ط ٣ .

والفؤاد في غير موضعها . ولو كانت المقارنة بين البصر وبين البصيرة على أساس ما بينهما من تقابل في المعنى ، لكان أولى وأقرب إلى الصواب .

ونستطيع أن نقول أيضاً إن البصر ليس ضد القلب ، فالبصر ضد العمى .

وواضح من شرح معنى البصيرة والقلب والفؤاد أن معانيها متقاربة وتكاد تكون متشابهة ، بخلاف البصر فله معنى بعيد يختلف عن هذه الأشياء الثلاثة ، وإن لم يكن بينه وبينها تناقض ، أو تماثل أو تشابه .

أما إذا اعتبرنا الترابط ومراعاة النظير بينهما جميعاً هو العامل في عقد هذه المقارنة كان دخول السمع في المقارنة أولى نظراً لارتباطه بالبصر في كثير من الأحوال ، وتكون المقارنة إذن بين :

تكرار لفظ البصر ومشتقاته .

وتكرار لفظ السمع ومشتقاته .

وتكرار لفظ القلب والفؤاد والبصيرة ومشتقاتها ؛ لاقتراب معانيها الثلاثة من التشابه ، أو نعقد المقارنة بين ورود اللفظ ونقيضه في القرآن .

أي نعقد المقارنة بين البصر وبين العمى ، أو بين السمع وبين الصمم أو بين القلب ـ موضع الانفعال والشعور بمعناه العام ، وبين العقل موضع التفكير والتدبير .

وقد كان يمكن للباحث أن يلحظ أحد أمرين :

إما اللفظ ومشتقاته دون التفات للمعنى كالبصر والبصيرة .

وإما المعنى وما يقاربه دون التفات للاشتقاق كالقلب والفؤاد .

فإذا لاحظ اللفظ وما يشتق منه دون التفات للمعنى كان ينبغي عليه ألا يجمع بين القلب والفؤاد في جهة واحدة ؛ نظراً لأن أحدهما لم يشتق من

الآخـر . وإذا لاحظ المعنى فقط دون الاشتقـاق وجب عليــه ألا يجمـع بين البصر والبصيرة في جهة واحدة ؛ نظراً لأن أحدهمـا يغايـر الآخر في المعنى . وإذا التزمنا بهذه الدقة في عقد المقارنة فمن المؤكد أننا لن نجد هذا التساوي في تكرار هذه الألفاظ وورودها في القرآن ، ولا نتمسك حينئذٍ بأن التغـاير في الأعـداد يعد وجهـاً من وجوه الإعجـاز في القـرآن فضـلاً عن أن يعـد الـوجـه الأول .

وتحت عنوان النفع والفسـاد[1] يذكـر المؤلف أن لفظ النفع على غـرار قوله تعالى ﴿ وَلَا يَملِكُونَ لِأنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ الفرقان ٣ ، ومـا يتعلق بهذا اللفظ من مشتقات قد ورد في القرآن الكريم ٥٠ مرة .

وأن لفظ الفساد على غرار قوله تعالى : ﴿ الذينَ طَغَوا في البِلادِ فأكثروا فيها الفَسَاد ﴾ الفجر ١٢ وما يتعلق بهذا اللفظ من مشتقات قـد ورد في القرآن ٥٠ مرة . وهذه المسـاواة الدقيقـة في الأعداد بين اللفـظين دليل على إعجـاز القرآن . ولنا بعض الملاحظات نشير اليها فيما يلي :

أولاً : أن النفع ليس ضد الفساد ، بل النفـع ضد الـضَـرّ يقول تعـالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهِمْ ضرّاً ولَا نَفْعاً ﴾ الفرقان ٣ . أما الفساد فضده الصلاح ﴿ الّذين يُفْسدون في الأرْضِ ولَا يُصْلِحُون ﴾ الشعراء ٥٣ .

ثانياً : إذا تمشينا مع المؤلف واعتبـرنا النفـع ضد الفسـاد فإن المقـارنة ينبغي أن تكون بين المصدر والمصدر ، والفعل والفعل ، واسم الفاعـل واسم الفاعل وهكذا .

وقد ورد لفظ النفع ٩ مرات ، بينما تكرر لفظ الفساد ٨ مرات .

وورد لفظ المفسدين ١٨ مرة ، بينما لم يرد لفظ النافعين قط .

---

(١) المرجع السابق ٤٥ .

وبذلك نفتقد التساوي في الأعداد الذي جعله المؤلف وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن ، ونستطيع أن نرى مثل هذا الاختلاف في الأعداد في كثير مما ساقه المؤلف ووجد فيه التساوي ، واعتبره دليلاً على الإعجاز ، ونكتفي بهذا القدر مما ذكرنا ففيه غناء عن استعراض جميع ما ذكره المؤلف في الكتاب .

ونضيف إلى ذلك أيضاً ما يمكن أن يوجه إلى نظرية الإعجاز العددي نفسها من اعتراضات .

أولاً : أن العرب لم يكونوا من علماء الحساب أو المهتمين بالأرقام والإحصاء ، وهم وإن كانوا عرباً يشتغلون بالتجارة ويهتمون بالربح والخسارة التي تستلزم الحساب ومراجعة الأعداد ، والتجارة هي قوام حياتهم والمورد الأهم لرزقهم ، واهتمامهم بالربح والخسارة محور تحركاتهم ، ولم يكن لهم غناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية على حد سواء، وقد كان التاجر يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تتجه إلى الشمال أو الجنوب ، التماساً للشراء والبيع وطلباً للربح ، ولا شك أن المسهمين في هذه القافلة برؤوس أموالهم أو بإشرافهم أو بمجهودهم يفتقرون إلى معرفة نصيب كل منهم في رأس مال القافلة وأرباحها ، وما كان ذلك ليتيسر إلا بالحساب ومراجعة الأعداد سواء أكان ذلك بالحفظ والاعتماد على الذاكرة ، أم كان بكتابة الأرقام وتدوينها ، إلا أن ذلك كان بطريقة ساذجة بسيطة تحفظ عليهم أموالهم ، ويعرفون بها ما لهم أو عليهم من ديون ، وذلك لا يستلزم البراعة الكبيرة في الحساب ، حتى يتحداهم القرآن فيما برعوا فيه من أعداد وحساب ، اللهم إلا إذا كانت المعجزة أعجب وأعظم حين نفترض أنها جاءت لقوم لم يشتهروا بمثل ما جاءت به المعجزة ، كأن يكون الإعجاز في القرآن للحساب والأرقام والإحصاء ، والعرب لم تتبحر في علوم الرياضة والحساب

أو تشتهر بممارستها حتى يكون ذلك أدعى للعجز والتسليم ، ربما كان الـرأي كذلك كما يذهب إليه بعض الباحثين ويفضل أن ينفي الصلة بين إعجاز القرآن وفصاحة العرب ، وينعي على الأقدمين الذين يربطون بينهما؛لأن القـرآن يكون أدعى إلى الإعجاز والاعتراف بإعجازه ، أن يكون قد بلغ هذا المبلغ من القوة والبلاغة في لغـة لم يعرف أهلهـا القراءة ولا الكتـابة من قبـل ، ولم يكن لهم بالتأليف عهد ، فكان نزوله في هـذا الجو على هـذا النحو من الكمـال معجزة أي معجزة ، أما القول بأن كل نبي أرسل بمعجـزة من نوع مـا تفوق فيـه أهله ليكون ذلك أدعى لتصديقه : فموسى أرسل بالسحر؛ لأن المصريين كانـوا مهرة في السحر ، وأن عيسى نزل بمعجـزة إحياء الموتى ؛لتفوق قـومه في الـطب ، وأن النبي أوتي معجـزة القرآن لتفوق العرب في الفصاحة ، فهي نـظرية مفتعلة وبراهينها غير ثابتـة؛ بل الثابت أن الطب لم يكن مزدهراً أبـداً في فلسطين في عهد المسيح(١) .

ثانياً : أن التساوي في الأعداد لم يلحظ في كثيـر من الألفاظ المتقـابلة أو المتماثلة في القرآن فقـد ذكر لفظ الأرض ومشتقـاتها ٤٦١ مـرة وكلها بلفظ المفرد ، ولم يذكر لفظ (أرضون) جمعاً ولا مرة واحدة .

أما لفظ السماء فقد ورد ٣١٠ مرة على هذه الصورة .

١٢٠ مرة بلفظ السماء مفرد .

١٩٠ مرة بلفظ السموات جمعاً .

والبون شاسع بين هذه وتلك سـواء من حيث العدد أو من حيث الصـورة في الإفراد والجمع .

---

(١) مجلة الأدب العدد الرابع عشر السنة الخامسة يوليو ١٩٦٠ د . محمد كامل حسين .

ومن الألفاظ المتماثلة نذكر . لفظ موسى ، ومحمد عليهم السلام .

فقد ورد لفظ موسى **١٣٦** مرة .

ولفظ عيسى **٢٥** مرة .

ولفظ محمد **٥** مرات منها مرة واحدة بلفظ أحمد .

وموسى وعيسى ومحمد تجمعهم رابطة واحدة ؛ هي رابطة النبوة والرسالة ، والتماثل بينهم قائم ، ولكن التساوي بينهم في عدد الألفاظ المذكورة في القرآن عن كل واحد منهم ليس قائماً . ونلاحظ مثل ذلك الفرق الكبير بين لفظ النبي والرسول ، ولفظ الأنهار والعيون ومشتقاتهما ، مما يدل على أن التساوي في بعض الألفاظ التي استشهد بها المؤلف على صحة نظريته إنما جاءت عفواً دون قصد أو هدف .

ثالثاً : يتعجب المؤلف حين يجد أن سور القرآن وعددها **١١٤** سورة يطابق العدد الذي تكرر به لفظ الرحيم وهو **١١٤** مرة ، ولم يوضح لنا العلاقة بين التساوي في عدد ألفاظ الرحيم وعدد سور القرآن أو الغرض منه ، فأسماء الله الحسنى عديدة وكثير منها لا يطابق عددها عدد سور القرآن ، ولو لاحظ معنى الرحمة في لفظ الرحيم واعتبرها في القرآن ، لكان الأجدر أن يعقد المقارنة بين عدد لفظ الرحمة ذاتها وهي تشمل (رحمتك ورحمتنا ورحمته ورحمتي والراحمين) وعددها **١٢٠** مرة عدا ما اشتق منها من أفعال .

وبعد فقد قام المؤلف بجهد مشاور وإن فاتته أمور كثيرة .

الإعجاز العلمي للقرآن

يـروي السيوطي عن أبي الفضـل المرسي أن القـرآن جمع علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً إلا الله ورسوله ، ثم ورث عنه معـظم ذلك أعلام الصحابة حتى قال ابن عباس ؛ لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله[1] .

ولـذلك نهض العلمـاء على اختلاف مشـاربهم وتخصصاتهم يـدرسـون كتاب الله دراسة متأنية دقيقة ، وذهبت كل طائفة تعالج القرآن لتستخرج منه ما يتفق والعلوم والتي تبحث فيها والفن الذي تشتغل به .

فالقراء تناولوا القرآن لبيان لغاته ومعـرفة مخـارج حروفـه ،وعدد كلمـاته وآياته وسوره .

والنحـاة تناولـوا القرآن من حيث البنـاء والإعراب في الأسمـاء والأفعـال والحروف « حتى إن بعضهم أعرب القرآن كلمة كلمة[2] » .

والمفسرون تناولـوا القرآن من حيث دلالـة ألفاظـه على معانيـه الظاهـرة

---

(١) المعترك ١ /١٧ ، الاتقان ٢ /١٢٦ .

(٢) المعترك ١ /١٨ .

والخفية ، واحتمال الألفاظ للمعاني المختلفة وترجيح بعضها على بعض .

والكتاب والشعراء وعلماء البلاغة نظروا إلى جزالة ألفاظ القرآن وبديع نظمه ، وحسن اتساقه واستخراج ما فيه من معان وبيان وبديع .

والمشتغلون بالعقيدة استخرجوا من القرآن الأدلة العقلية التي تدل على وحدانية الله وتنزيهه عما لا يليق .

وعلماء الفقه دققوا النظر وأحكموا فيه الفكر ليستخرجوا منه الحلال والحرام ، والجائز والممتنع وسائر الأحكام المتعلقة بالمواريث والوصايا وغير ذلك .

والمشتغلون بالعلوم النفسية تناولوا ما في القرآن من آيات لها دلالات نفسية ، أو إيحاءات رمزية ، واهتموا بصفة خاصة بالآيات التي ورد فيها ذكر الأحلام والرؤ ى المنامية مثل رؤ ى يوسف عليه السلام .

وعلماء الطب وجدوا في القرآن آيات تفيد الصحة بعد السقم ، والشفاء بعد المرض ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ النحل ٦٩ ، كما وجدوا في بعض آياته فضلاً عن طب الأجساد ، طب القلوب وشفاء الصدور .

والملاحظ أن المشتغلين بعلوم القرآن قد توغلوا في استخراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم توغلاً شديداً حتى إنهم لم يتركوا علماً من العلوم إلا قالوا : إن القرآن قد تحدث عنه أو أشار إليه إشارة قريبة أو بعيدة ، كأنهم بذلك أرادوا تطبيق الآية الكريمة .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام ٣٨ وقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ الكهف ٤٩ . فكل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم قد

ذكره القرآن مفصلاً أو مجملاً ، فقوله تعالى :

﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ المرسلات ٣٠ .

أي ظل جهنم تمتد ألسنته في ثلاث شعب ، قالوا فيه إشارة إلى الهندسة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ ﴾ الأعراف ٢٢ أي شرعاً بإلصاق ورق من الجنة ورقة بجوار أخرى لستر عوارتهما ، وفي ذلك إشارة إلى الخياطة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيد ﴾ سبأ ١٠ وقوله : ﴿ آتُونِي زُبُرَ الحديدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَينِ قَالَ انْفُخُوا ، حَتَّى إِذَا جَعلَهُ نَاراً قَال آتُونِي أُفرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ الكهف ٩٦ فيه إشارة إلى الحدادة باستعمال كتل الحديد وتسخينها بالنفخ في النار ومزجها بالنحاس غير المذاب ليزداد صلابة ، وهي طريقة عرفت حديثاً لتقوية الحديد .

وقوله تعالى : ﴿ واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ هود ٣٧ .

فيه إشارة إلى بناء السفن وما يستخدم فيها من نجارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً ﴾ النحل ٢٩٢ .

وهو مثل ضربه الله لمن يوثق العهد ثم ينقضه ، فشأنه شأن الحمقاء التي تحكم غزل الثوب ثم تنقضه ، وفي ذلك إشارة إلى الغزل .

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمثلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بيْتاً ﴾ العنكبوت ٤١ فيه إشارة إلى صناعة النسيج .

وقوله تعالى : ﴿ أَفرأَيْتُم مَا تَحْرُثُون ﴾ الواقعة ٦٣ والحرث تهيئة الأرض للزراعة وإلقاء البذور فيها للإنبات ، وفي ذلك إشارة إلى الحراثة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ النحل ١٤ فيه إشارة إلى الغوص لاستخراج الحلى واللآلىء المكنونة في أعماق البحار .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ الأعراف ١٤٨ أي صاغوا الحلى على صورة العجل ، وفي ذلك إشارة إلى صناعة الصياغة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ القصص ٣٨ فيه إشارة إلى صناعة الفخار . كما ذكر القرآن شيئاً عن الطبخ والصبغ والنحت .

فقال عن الطبخ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَما لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذ ﴾ هود ٦٩ .

وعن الصبغ قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ومَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ونَحْنُ لَهُ عَابِدُون ﴾ البقرة ١٣٨ .

وعن النحت قوله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنْ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِين ﴾ الشعراء ١٤٩ .

وغير ذلك كثير من الآيات التي تشير إلى الصناعات المختلفة والآلات التي تستعمل فيها ، وتدعو الضرورة إليها ، ولا نذكرها كلها بطبيعة الحال ، وإنما اكتفينا بذكر بعضها باعتبارها أنموذجاً للكيفية التي كان ينظر بها العلماء المتقدمون إلى القرآن واستنباط ما فيه من آيات تشير إلى العلوم والصناعات ، فكلما ذكر لفظ يحمل معنى من تلك المعاني أو يشير إلى ما كان يستخدمه الناس في حياتهم ومعاشهم اعتبروه دليلاً على أن القرآن قد جاء بعلوم الأولين ، وتحدث عنها ، وحوى إلى علوم الدين وفروعه علوم الطب والفلك والهندسة والزراعة والصناعة حتى يتحقق معنى قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا في

الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام ٣٨ .

وإذا كانت هذه هي نظرة المفسرين المتقدمين إلى آيات القرآن التي اشتملت على مثل هذه الألفاظ التي تدل على معناها بطريقة عفوية فيها من الفطرة والبساطة أكثر مما فيها من الاستعانة بوسائل العلم وامتلاك أسبابه ، واستخدام آلاته ، فإننا نلتمس لهم العذر إذ لم يكن العلم قد تطور في زمنهم هذا التطور العظيم الذي نلحظه الآن في عصرنا الحديث وما فيه من إمكانات هائلة ووسائل علمية متطورة وآلات دقيقة تساعد الباحثين على الاستمرار في أبحاثهم والتوصل إلى أهدافهم .

فإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا بعض العلماء المتخصصين يتناولون القرآن من وجهة نظر علمية صرفة لإثبات ما فيه من إعجاز وسبق علمي أشارت إليه الآيات التي تتفق وما يتوصل إليه العلم في أوج تقدمه ، ومن الأمور الشائقة أن نعرض لكتاب هام لعالم متخصص[1] يتحدث فيه عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .

والمؤلف الفاضل يرى أن في القرآن إعجازاً علمياً لا يجرؤ المكابر أو الملحد أن يجد موضعاً للتشكيك فيه ، فآيات القرآن التي تتضمن الإعجاز العلمي - وهي لا تقل عن ثمانمائة آية كونية[2] - تعد دليلاً محسوساً على أن القرآن من عند الله وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن إعجازه ليس مقصوراً على العرب وفصحائهم ؛ بل يتعدى ذلك إلى البشرية جمعاء في كل بقاع الأرض ، فهي مخاطبة به ، ومطالبة بالتسليم له دون نظر إلى جنس أو لغة أو لون . وينبه المؤلف إلى القاعدة التي ينبغي أن تتبع في فهم الآيات العلمية وتفسيرها ، إذ يجب علينا أن نراعي أمرين :

---

(١) الإعجاز العلمي للقرآن د . محمد أحمد الغمراوي‌ط الشعب .
(٢) المرجع السابق ٨ .

أولهما : ينبغي أن نتمسك بـالحقيقة في التفسيـر ، ولا نعدل عنهـا إلى المجاز إلا إذا كان ثمة دليل على أن سياق الكلام يمنـع من حقيقة اللفظ كمـا هو ، وعندئذ لا مفر من العدول عنها إلى المجاز .

ثـانيهما : أن ننـظر إلى معاني المفـردات كمـا كـانت عليـه وقت نـزول الوحي بالقرآن ، وذلك مراعاة لـدقة اللفظ في التعبيـر عن المعنى المقصود إذ من المحتمل أن يدخل اللفظ بمرور الأزمان شيء من التحوير أو التبديل . ثم يسرد لنا المؤلف نماذج من الآيات الكونية ذكـرت في القرآن منـذ أربعة عشـر قرناً وهي تتفق في مفهومها ومكتشفـات العلم الحديث بمـا يسانـده من أجهزة دقيقة ، ومراصد عظيمة ، وأساليب متقدمة في البحث العلمي ، أو على الأقل لا تتعارض مع مفهوم العلم ومكتشفاته العديدة ، ومنجزاتـه العظيمـة ، كما أن بعض هذه الآيات الكونية تتضمن حقائق علمية لم تكتشف بعد .

العوالم الأُخر[(١)]

فمن الآيـات القرآنيـة التي تشير إلى حقيقـة علمية ولا يتفهمهـا كثير من النـاس رغم أنها تجـري على لسان المسلم حين يحمـد الله ويرددهـا في كـل ركعة من صلاته وهي (الحمد لله رب العالمين) الفاتحة ١ فالعـرب لم يكونـوا يدركون إلا عالماً واحداً هو ذلك العالم الـذين يعيشون فيـه ، وربما ظنـوا أنها عوالم الإنس والجن والملائكة ، أو عوالم الحيوان والنباتـات والجماد . ولكن علم الفلك بمراقبه ومراصده وآلاته أثبت أن هناك عوالم مجرية أخرى متـرامية الأبعاد في المجموعة الشمسية تعد بالمـلايين ، فعالمنـا فيه أرض تـدور حول الشمس ، فلماذا لا يكون في تلك العوالم الأخرى عالم شبيه بعالمنا تكون فيه أرض تدور حول شمس وتكـون بها حيـاة ، والقرآن ينبئنـا أن في الكون سبـع سموات بقوله تعالى : ﴿ ثُمّ اسْتَوَى إلَى السماءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقالَ لَها وَلِلأَرْضِ

(١) انظر نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن ١٥ د . محمد الغمراوي ط الشعب .

ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنَا طَائِعِين فقَضاهنّ سَبْعَ سَمَواتٍ في يَوْمَيْنِ وَأَوْحى في كلِّ سَماءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزِيزِ العَلِيم ﴾ فصلت ١١ ، ١٢ وفي الكون أيضاً سبع أرضين يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سبْعَ سَمَواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الطلاق ١٢ فالأرضون سبع لتحقيق المثلية بينها وبين السموات ، وليست سبع طبقات في أرضنا التي نعرفها كما فهم بعض الناس . فأرضنا واحدة مهما تعددت طبقاتها ، ويوضح ذلك بما لا يدع مجالاً للشك بأنها سبع أراض قول الرسول (اللهم رب السموات السبع وما أَظْلَلْنَ، وربّ الأرضين السبع وما أَقْلَلْنَ) إذا اعتبرنا المعنى الحقيقي لكلمة (سبع) دون أن نلجأ إلى المجاز الذي يدل على الكثرة البالغة ، فليس المراد بكلمة العالمين في آية الفاتحة إذن مجرد عالم الإنس والجن والملائكة ، أو عالم الحيوان والنبات والجماد كما كان مفهوماً وسائداً من قبل . بل هو عالم فلكي بما يشمله من سموات وأرضين كما تخبرنا الآية الكريمة .

وجود الحياة في العوالم الأخر[1] :

ويحتمل وجود حياة في عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه ، فالعلم لم يقطع برأي حتى الآن ، ولكنه بصدد الكشف عنها في المستقبل القريب أو البعيد ، ولنتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِه خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابةٍ ﴾ الشورى ٢٩ أي في السموات والأرض كليهما وليس في مجموعهما كما يؤولها بعض المفسرين .

وربما يكون أوضح وأكثر تفصيلاً في إثبات الحياة في العوالم الأخر قوله تعالى : ﴿ وَلِله يَسْجُدُ ما في السَّمَواتِ وَما في الأرض مِنْ دابةٍ والملائكَةِ وَهُم لاَ يَسْتَكْبِرُون ﴾ النحل ٤٩ فالسجود في السموات كما هو في الأرض من كل

(١) المصدر السابق أنظر ص ٢٤ .

مـا يدب ، وقـد يظن البعض أن الـذي يسجد في السمـوات هم المـلائكـة ، وليس الأمر كذلك فذكر الملائكة بعد ذكر كلمة (دابة) دليل على أن الملائكة غير الدواب التي تسجد لله في السموات والأرض، ففي السموات أحياء وحياة أخرى لم ندركها ، وهي من الأسرار الغامضة التي لم ينفذ إلى طبيعتها أحد . وكـل المحاولات التي بـذلت للبحث عن مصدرهـا أو طبيعتها أغلقت دونهـا الأبواب . وحين يكتشف العلم هذه الحياة في الكواكب الأخرى في المستقبل فإنما يحقق معجزة علمية للقـرآن تضاف إلى معجـزاته العـديدة التي تؤكـد أنه من عند الله .

حركة الشمس[1] :

اكتشف العلم الحديث في القرن التاسع عشر وجود حركة ذاتية للشمس قدرت سرعتها باثني عشر ميلاً في الثانية ، وكـان ذلك كشفـاً جديـداً لم يخطر ببـال أحد قبـل ذلـك القرن ،حتى تهيـأ لعلم الفلك من آلات الـرصـد وأدوات التحليل الضوئي ما يساعد على اكتشاف ذلـك السر العـظيم : فالشمس تـدور حول نفسها ، وكان الظن أنها ثابتة في موضعها الذي تـدور فيه حـول نفسها ، وقد ثبت أنها ليست مستقرة في مكانها ، وإنما تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء بسرعة قدرهـا الفلكيون بـاثني عشر ميـلاً في الثانيـة ! وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو **٣٣٣** ألف مـرة لحجم أرضنا هذه[2] . وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء نـدرك طرفـاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم .

والقرآن لم يغفل الحركة الـذاتية للشمس بـل صرح بـذلك في أكثر من مـوضع فقـال ﴿ وَهُوَ الَّـذِي خَلَقَ الَّليلَ والنَّهـارَ والشَّمْسَ والقَمَـرَ كُـلٌّ في فَلَكٍ

(١) المصدر السابق انظر ص ٢٧ .
(٢) وقدرها بعض العلماء بمليون ضعف لحجم الأرض انظر ظلال القرآن ٥ / ٢٩٦٨ سيد قطب .

يَسْبحُون ﴾ الأنبياء ٢٣ فقد أثبتت الآية أن للشمس انطلاقاً ذاتياً : لأن يسبح معناها يسرع . وربما كان أكثر توضيحاً لحركة الشمس وجريانها قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم ﴾ يسّ ٣٨ . كل ذلك كان مجهولاً ولم يكتشفه العلم إلا حديثاً . ولكن القرآن قد أخبرنا منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، مما يدل على إعجاز القرآن وأنه من عند الله العليم الخبير .

دوران الأرض[1] :

يقول علماء الفلك إن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم . وتدور حول الشمس مرة كل عام .

وفي القرآن آيات عديدة تثبت كلتا الحركتين :

وقد وصف الله الليل بالإدبار فقال ﴿ وَاللَّيلِ إِذَا أَدْبَر ﴾ المدثر ٣٣ .

ووصفه بالسُرَى فقال ﴿ واللَّيلِ إِذَا يَسْر ﴾ الفجر ٤ . ووصفه بالإقبال والادبار كليهما في قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَس ﴾ التكوير ١٧ .وكلمة (عسعس) معناها أقبل ظلام الليل أو أدبر .

وهذه الأوصاف تقتضي كلها حركة الأرض اليومية . وربما يكون أوضح في الدلالة على حركة الأرض اليومية قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللّيلَ النهارَ يَطْلُبهُ حَثِيثاً ﴾ الاعراف ٥٤ . فالنهار يزحف إثر الليل فيحل محله من طرف ، والليل يزحف إثر النهار فيحل محله من الطرف الآخر في كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية .

---

(١) انظر المرجع السابق .

والتعبير القرآني غاية في الدقة حيث لم يصف الليل دون النهار أو النهار دون الليل بهذا الوصف ، بل جعل الليل والنهار كلا منهما يغشي الآخر ، فالقرآن إذن تحدث عن حركة الأرض ودورانها قبل أن يصل العلماء إلى هذا الكشف بعدة قرون .

أما حركة الأرض حول محورها أمام الشمس : فالإشارة إليها تكاد تكون صريحة في القرآن ، إذ أنها تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية . فقوله تعالى : ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تمرُّ مَرَّ السَّحاب، صُنْعَ اللَّهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ﴾ النمل ٨٨ . فالجبال يحسبها الناظر ثابتة غير متحركة ، ولكنها تتحرك وتجري كما يجري السحاب، والسحاب لا يتحرك من تلقاء نفسه ؛ ولكنه يتحرك ويتنقل محمولاً على متن الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائي فيظنها جامدة في مكانها لا تتحرك ، ولكنها في الواقع تجري مسرعة محمولة أيضاً ، وليس لها ما يحملها سوى الأرض ، فالأرض هي التي تتحرك وتسرع بالجبال كما تسرع الرياح بالسحاب .

والمؤلف قد استخلص حركة الأرض من حركة الجبال التي تحدثت عنها الآية ، لأن حركة الجبال تابعة لحركة الأرض ، كما أن حركة السحاب تابعة لحركة الرياح ، وحين أثبت المؤلف ذلك لم ينظر إلى الآية من خلال النص القرآني كله ، بل اجتزأ الآية وفصلها عن السياق ، فالآيات تتحدث عن يوم القيامة وما يصحبه من هول وفزع ، فالنفخ في الصور : نفخة البعث ونفخة الحشر ، وما يقترن به من اضطراب وانقلاب في نظام الكون كله ﴿ وَيَوْم يُنْفَخُ في الصُّورِ ففزِعَ مَنْ في السَّمَواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرين ، وَتَرى الجِبَالَ تَحْسَبُها جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾

(١) انظر المرجع السابق ٣٣ .

النمل ٨٧ ، ٨٨ « ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية وتمر كأنها السحب في خفتها وسرعتها فتضفي على المشهد المفزع ظلالاً تكتمل بها الصورة ، فالجبال تنطلق كأنها مذعورة مع المذعورين »[١] .

فالقرآن إذن يصور مشاهد القيامة ، وهي مختلفة في نظامها عن النظام المألوف في حياتنا للدنيا ، فإذا كان نظام الكون كله يتغير ويتبدل في اليوم الآخر ، فوصف الجبال بالحركة وما يلزم ذلك من وصف الأرض بالحركة يوم القيامة ، ليس دليلًا على أن ذلك الوصف ثابت لها في نظام الكون الجاري في هذه الدنيا التي نعيش فيها .

الجاذبية العامة[٢] :

يقف الانسان مشدوهاً أمام السماء وهو يتأملها لحظة فراغه ؛ لاتساعها وعظمها وارتفاعها وتناثر النجوم السابحة في أفلاكها ، وهذه السماء متماسكة لا تضطرب ولا تختل ولا تتصدع ولا تنهار ، وبذلك لا يتحقق فيها صفة البناء العادي فقط ، بل البناء المعجز الذي لا يعتريه اضطراب رغم تقلب الأحوال والأجواء . والسماء قائمة مرفوعة هكذا مكشوفة أمام الأبصار دون أن تثبت على أعمدة أو تقوم على جدران ، فما من أحد يقدر على هذا العمل العظيم والصنع المتقن سوى الله سبحانه ، فما الذي يمسك هذا البناء . وما الذي يجمع هذه الأجزاء ، ويدع كلًا في موضعه دون خلل أو اضطراب ؟

كان المفسرون قديماً حين يتلون قوله تعالى ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الرعد ٢ ، أو قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ لقمان ١٠ يقولون إن للسماء عمداً حقيقية تمسكها وتحفظها وهي

---

(١) الظلال ٥ / ٢٦٦٨ .

(٢) الاعجاز العلمي ٤٠ .

قدرة الله تعالى وتدبيره ، وإن الناس لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية الامساك . أما المفسرون المحدثون الذين تشربوا الثقافة العصرية واستوعبوا العلوم الحديثة واستعانوا بها في تفسيرهم لآيات القرآن وعلى رأسهم الإمام الشيخ محمد عبده فقد قال حين تعرض لتفسير قوله تعالى : ﴿ والسماءِ وَما بَنَاهَا ﴾ الشمس ٥ « البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى تتكون منها بنية واحدة : وهكذا كان عالم السماء . فقد صنع الله الكواكب كلاً منها على نسبة من الآخر مع ما يمسك كلاً في مداره حتى كان منها عالم السماء » فقوله صنع الله الكواكب كلًا منها على نسبة من الآخر إشارة إلى تقدير نسب المسافات ثم الكتل . وقوله « يمسك كلًا في مداره » إشارة إلى قانون الحركة والجاذبية . فالقرآن إذن أشار إلى قانون الجاذبية ، ولم يكن بوسع المفسرين القدامى أن يستنبطوا هذا القانون من الآيات القرآنية ولم يتكشف لنا ذلك إلا في العصور المتأخرة حين تطور العلم بمفهومه الحديث .

الفلك وتسخيرها[1] :

وظاهرة الفلك وسبحها فوق الماء وما ينبغي أن يراعى في ذلك من شروط يلتزم بها المتخصصون في صناعة الفلك وهندستها مما يتعلق بطفو الأجسام على سطح الماء ،فقد أشار إليه القرآن وتنبأ بما سوف يكون عليه أمرها في مستقبل السنين وعلى مدار الأعوام ، وما تصل إليه من تقدم وتطور على أيدي الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل ، فالقرآن يقول ﴿ وآيةٌ لهمْ أنَّا حَملْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلكِ المشْحُون ، وَخَلقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَركَبُون ﴾ يس ٤١ ، ٤٢ . ولنتأمل معاً كلمة ذريتهم ، وكلمة المشحون في الآية الكريمة : فوصف

(١) انظر المرجع السابق ٤٦ .

الفلك بالمشحون إشارة واضحة إلى أن السفينة المثقلة بالحمولة من شأنها أن تغوص وتغرق ، لولا أن سنة الله تقضي بألا يغوص من السفينة إلا ما يكفي لإزاحة قدر من الماء وزنه مثل وزن السفينة وحمولتها ، وكلما زادت حمولة السفينة زاد القدر الذي يغوص في الماء ، والعكس بالعكس ، ومهما يكن من شيء فلن يغوص من السفينة إلا القليل من حجمها .

فالسفينة تمخر العباب ، وتنطلق في الماء تحملها قدرة الله التي تحكم الكون وتصرفه بحكمته ، والفلك لا يعوم إلا بخواص تراعي في حركتها وسيرها وثباتها ، وهي خواص الفلك وخواص الماء وخواص الريح أو البخار أو الطاقة المنطلقة من الذرة أو غيرها من القوى ، وكلها من أمر الله وخلقه وتدبيره ، ومهما بلغت ضخامتها ، وأتقن صنعها ، فهي في البحر كالريشة في مهب الريح ، تحتاج إلى مهارة في الصنع ، ودقة في التركيب ، وتناسب في الأبعاد، حتى تحقق الغرض منها . ولا شك أن هذه أمور يعرفها مهندسو السفن والمشتغلون بالملاحة البحرية .

وكلمة (ذريتهم) في الآية تشير إلى ما ستتطور إليه صناعة السفن في مستقبل الأجيال ، فكل ذرية تعقب سابقتها تتطور صناعة السفن على يديها ، ويدخل فيها كثير من التعديل والتحسين ، والسرعة والحمولة والطاقة ، فمن عهد الشراع إلى عهد البخار إلى عهد الكهرباء والذرة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِه الْجَوارِ في البَحْرِ كالأعْلام ، إنْ يَشَأْ يُسْكِن الريحَ فيظْلَلن رَواكِدَ عَلى ظَهْرِه ﴾ الشورى ٣٢ . يشبه الله الجواري - السفن - بالجبال التي تدل على ضخامة حجمها وهيبة منظرها ،وفي ذلك تنبأ بما سوف تصل إليه البراعة الهندسية في السفن وصناعتها ، وعلوم القوى التي لا بد منها لدفع تلك السفن الشاهقة كالجبال فضلاً عن التحكم فيها وتوجيهها أثناء جريانها في البحر .

فجريان السفن الضخمة كالجبال في البحر آية من آيات الله .

والبحر بما فيه من سعة وعمق وكثافة تحمل السفن ، وهذه السفن بمادتها وخصائصها وكونها تطفو على سطح الماء ، وتلك الرياح التي تدفع السفن لتشق صدر الماء ، كل ذلك آية من آيات الله ، وأنها معجزة علمية جديرة بالتأمل والاقتناع والشكر .

الطيران[1] :

ومن الآية التي سقناها دليلاً على الفلك وما يؤول إليه أمره في المستقبل من تطور وتحسين ، يمكن أن نستنبط أيضاً شيئاً عن الطيران . فقوله تعالى : ﴿ وآيةٌ لهمْ أنّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ في الفُلْكِ المشْحُون ، وخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِه مَا يَرْكَبون ﴾ يسٓ ٤١ ، ٤٢ فقد كان الناس يعتقدون في قوله (من مثله) أي من مثل الفلك ما تقع عليه أبصارهم من وسائل الحمل كركائب الحيوانات البرية وخاصة الإبل التي يعتمدون عليها في جلِّ تنقلاتهم وأسفارهم ويسمونها سفينة الصحراء . فوجه الشبه بين هذه الوسائل وبين الفلك أن كلاً منها يحمل راكبه .

وبتقدم وسائل الحمل والانتقال نجد الآية تنطبق على الطائرة أيضاً وذلك أدعى ؛ نظراً للصفة الدقيقة المشتركة بين الفلك والطائرات ، فكلٌّ منها يسبح : الطائرات تسبح في الهواء ، والفلك تسبح في الماء ؛ وهذا ما ينبغي أن يفهم من الآية في عصرنا الحديث بعد تطور وسائل الانتقال .

وقوله تعالى : ﴿ والسَّابحَاتِ سَبْحاً ﴾ النازعات ٣ ينطبق على الطيران أيضاً ، فهي قسم بكل ما يسبح سواء في ماء أو في هواء أو في مائع أياً كان نوعه ، فهي إذن تشمل حيوان البحر وسفنه ، وطير الجو وطائراته ، والكواكب

(١) انظر المرجع السابق ٧٨ .

والنجوم في أفلاكها ﴿ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ الأنبياء ٣٣ . بل تشمل الصواريخ والأقمار الصناعية وكل ما يدور حول الأرض يسبح في فضاء الله بإذنه ، وما سوف يأتي به العلم في المستقبل من اكتشافات .

الرياح وتكوين السحب وما ينشأ عنها[١] :

في قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرْسَلَ الرِّيَاحَ فتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فأحْيَيْنا بهِ الأرض بعدَ موْتِهَا كـذَلِكَ النشور ﴾ فاطر ٩ إشارة إلى تكوين السحاب بفعل الرياح ؛ لأن الإثارة معناها الإظهار ، فالريح إذن تظهر السحاب بعد خفائه والله يسوقه حيث يشاء .

والسحاب في الأصل بخار ماء كامن في الهواء ، ثم يظهر التكاثف ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الرياح التي تحمل البخار إلى المناطق العلوية الباردة ، فالمراد بإثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح في تكوين السحاب .

والقرآن أيضاً يتحدث عن أثر الكهربائية في إيجاد المطر والبرق والبرَد كقوله تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ أنّ الله يُزْجِي سحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُه رُكَاماً فترَى الوَدْقَ يَخْرُجُ منْ خِلَالـه ، وَيُنَزِّلُ مِنْ السمـاء مِنْ جِبَال فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيب به مَنْ يَشاء ويَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاء ، يكادُ سنا برقهِ يذْهَبُ بالأبصار ﴾ النور ٤٣ .

فالله يزجي السحاب ويدفعه من مكان إلى مكان ثم يؤلف بينه ويجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض ، فالسحاب المتجاذب فوق بعض هو السحاب الركام .

فإذا حدث التفريغ الكهربائي داخل السحب أي بين بعضها نزل المطر

---

(١) انظر المرجع السابق ٦١ .

ويسمى الودق كما ذكر القرآن وهو مطر لا برد فيه .

فإذا اشتد الاضطراب بين السحب المتراكمة بسبب الحالة الجوية الكهربائية تكون البرد ويثقل ، فلا يظل معلقاً في الهواء ، بل يسقط على الأرض ، وهذا هو البرد .

أما البرق فينشأ من تجاذب السحب ذات الشحنة الكهربائية الموجبة والسالبة حتى تتحد كهربائية أحدهما بالآخر ، وعندئذٍ تحدث فيه شرارة عظمى هي البرق الذي يسبق المطر .

فهذه الآية القرآنية الكريمة تحدثت إذن عن ظواهر كونية تنشأ عن السحب ويتكون منها بسبب تجمعها وتجاذبها ما يصبح ركاماً أو مطراً أو برداً أو برقاً ، وهو ما أثبت العلم صحته وفسر لنا وقوعه .

الحديد (١) :

تقول النظريات الفلكية الحديثة : إن المجموعات النجمية ، كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر كانت سديماً (دخان . غاز) ثم انفصلت عنها ، وأخذت أشكالها الكروية ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت .

وهذه النظرية الفلكية لا تخالف الحقيقة المجملة التي قررها القرآن في قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الذينَ كَفَروا أنّ السَّمواتِ والأرضَ كانَتا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ الأنبياء ٣٠ .

فالأرض قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها لسبب غير متفق على

(١) انظر المصدر السابع ٨٢.

تقديره ، واستغـرقت زمناً حتى بـردت قشرتهـا وصلبت ، بينما بقي جـوفها في حالة انصهار لشدة الحرارة .

وقد وجد الكيماويون كثيراً من العناصـر المشتركـة بين الأرض والشمس مما يؤكد أن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها .

والله خلق الأرض في يومين ﴿ قُل أئنَّكُمْ لتَكْفُـرُونَ بالـذي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ وتَجْعَلون لَهُ أنْدَاداً ﴾ فصلت ٩ ففي اليوم الأول من خلق الأرض تم انفصـال جزء من الشمس عنهـا وسمي فيما بعـد أرضاً ، وفي اليـوم الثاني تم تبريد هذا الجزء حتى تجمع وتجمد .

وإذا كـانت الشمس جزءاً من المجمـوعـات النجميـة وانفصلت عنهـا ، والأرض جزءاً من الشمس وانفصلت عنها ، فالحديـد الذي ذكـر في القرآن ، بل ذكرت سـورة باسمـه في القرآن يـدل على أهميته القصـوى في الكون وفي حياة الإنسان ، والله يقول ﴿ وَأَنزلْنَا الحديـدَ فيه بـأسٌ شديـدٌ وَمَنافـعُ للنّاس ﴾ الحديد ٢٥ فقوله ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ من معجزات القرآن العلمية ، فقد أثبت العلماء أن الحديد عنصر من العناصر التي تتكـون منها المجمـوعات النجميـة مثـل الشمس ، والله سبحانـه أنزل الحـديد من الشمس كمـا أنزل الأرض من الشمس .

وإنزال الحديد مع الأرض من الشمس فيه دعامـة للإنسـان ينتفع بـه في دمه واختراعاته ومعاشه وشئون حياته ؛ لأنه قـوة في كل الـظروف والأحوال : قوة في الحرب وقوة في السلم ، وعليه تقوم حضارة العصر كله ، ويعتبر المادة الأولى في الإنشاء والبناء والتعمير .

هـذه بعض النمـاذج التي سـاقهـا المؤلف ليؤكـد لنـا أن بعض الآيـات تحمل إشارات كونية تشير إلى إعجاز القرآن من الوجهـة العلمية ، ويجمـل بنا أن نقول له ولغيره من العلماء الأجلاء : إن إقحام العلم في تفسيـر آيات القـرآن

لبيـان كونـه معجزاً لا تتفق ومـا نعرفـه عن عقلية العـرب وثقافتهم وقت نـزول الوحي ، فالعـرب حين نزل القـرآن كـانـوا قـومـاً بسطاء ، يعيشـون على الفـطرة ويتصـرفون بالسليقة ، ويمارسون حيـاة شاقـة في بيئة صحـراوية ، وينتقلون على ظهور الإبل من مكان إلى مكان مهما طالت الـرحلة وبعدت الشقـة ، وطبيعي أن العرب لم يكونوا علماء يباهون الأمم بنظرياتهم العلمية ، ويشغلون أنفسهم بالاكتشافات التي تغير مفهـوم الناس عن الكـون الرحيب ومـا فيه من عجـائب فلكية ، أو أشكال هندسية ، أو معلومـات زراعية ، وهم قـوم يمضون حيـاتهم في الخيام ويقضون أوقاتهم في الرعي .

والقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضـة ، أو شارحـاً لحقائق علميـة ثابتة ، أو معملاً تجري فيـه التجارب ليتـوصل منهـا إلى نتائـج علمية تخـالف المتعارف عليه ، أو تؤكده ، وإنما هو كتاب هداية للبشرية ، تسعد إذا سارت على تعـاليمـه ، وتشقى إذا ضلت عنهـا . وهـو منهـج متكـامـل لحيـاة الفـرد والمجتمـع لينطلق في الحـدود التي رسمهـا لـه دون أن يلجـأ إلى تفصيـلات وجزئيات علمية ، وتجارب معملية ، وإنما يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد الخليقة .

وتـطبيق النظريـات العلمية على النصـوص القرآنيـة لا يتمشى مـع سنـة التـطور ، فالنص القـرآني ثابت ومتيقن لا مجـال للشك فيـه ، أما العلم فـإنـه متغيـر ومحتمل بحكم التطور الذي يـطرأ عليه ؛ فالنظرة العلمية التي نعتنقها اليوم ، ونحاول تطبيق النص القرآن عليها ، باذلين الجهد والمشقة حتى نصل في النهاية إلى الاتفاق الكامل بين النظريـة العلمية المعـروفة التي بين أيـدينا الآن وبين النص القرآني ، هذه النظرية الثابتة اليوم قد يثبت خـطؤها غـداً وتـنقض بنـظرية أخرى تخالفها ، ومن يدرينا أن هذه النظرية الأخرى قد يـطرأ عليها مـا يغيرها هي أيضاً ، ويجعلها نظرية بـالية لا قيمـة لها علميـاً ، ولذلـك ينبغي أن

تهيب كثيراً قبل أن نتورط في إقحام العلم على النصوص القرآنية .

نعم قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية إشارة مجملة لا تفصيل فيها ، ومن الواجب أن نتفهمها ونأخذ بها ؛ لأننا نستيقن من صحتها بمجرد ذكر القرآن لها ، والقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما دام القرآن قد ذكرها مجملة ، فكل تفصيل في الظواهر الكونية من خلال النص القرآني قد يجعل القرآن نفسه عرضة للتغيير والتبديل ، فالشيء إذا ذكر مجملاً في القرآن أخذنا به كما هو ، لأنه صادق . أما ذكر التفصيلات وحشد الجزئيات والتماس العلل والأسباب فهي غير صحيحة دائماً ، وغير مسلم بها أبداً ، وإنما تحتمل الخطأ والصواب ، ومن المجازفة أن نأخذ بالصواب في شيء ونسعى إلى تطبيقه على النص القرآني ،ثم يأتي إلينا العلم نفسه في المستقبل بما ينقض ما سبق لنا الأخذ به ، والتثبت من صدقه ، واعتباره صواباً ، ليؤكد لنا فيما بعد أنه كان خطأ ، ومن ثم لا ينبغي أن نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية علمية ، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملة التي ذكرها القرآن وقررها .

وإذا كنا لا نجد تناقضاً بين الآيات الكونية المذكورة في القرآن، وبين ما يكتشفه العلم في حاضره أو مستقبله فليس هذا دليلاً على إعجازه ، وإنما هو دليل فقط على أنه منزل من قبل الله سبحانه ، « وليس كل ما نزل من السماء معجزاً ، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية جاءت من قبل الله ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن ، ولم يقع بها التحدي كما وقع في القرآن[1] .

ونضيف إلى ذلك أيضاً أن الآيات الكونية لا تشمل سور القرآن كلها

(١) إعجاز القرآن ٤٧ ، التمهيد ١٢٧ ، المعترك ١/١٠ ، الاتقان ٢/١٢٤ .

وهي تبلغ ١١٤ سورة ، ولا آياتـه كلهـا وهي تبلغ ٦٢٣٦ آيـة على أرجـح الآراء ، وإنمـا تقـع فقط في بعض السـور دون بعضهـا الآخـر ، وفي بعض الآيـات دون البعض الآخـر ، وهي تبلغ ثمـانمـائـة آيـة كـونيـة كمـا يقـول المؤلف[1]، وهـو عـدد قليـل إذا قيس بعـدد الآيــات القـرآنيــة . ومعلوم أن التحدي قد وقع بأية سورة من سور القرآن ، فكل سورة من سـوره فيها إعجـاز لا يبلغـه أحد ولن يصـل إليه أحـد ، فلو كان القـرآن معجزاً بسبب الإشـارات العلمية المتفرقة في ثنايا بعض آياته، لكان كثير من سور القـرآن التي تخلو من مثـل هذه الإشـارات بعيدة عن الإعجـاز ، ولم يقل بذلك أحـد حتى العلمـاء أنفسهم الذين نادوا بالإعجاز العلمي للقرآن .

وبعد فقد ذكرنا من قبل بعض وجوه الإعجاز التي رأى العلماء فيهـا سبباً كافياً لإعجاز القرآن، فمنها ما كان بالصـرفة ، ومنهـا ما كـان يذكـر فيه من سيـر الأولين ، ومنها ما فيه من تنبؤ بأحداث المستقبل ، ومنها ما يرجع إلى التماثل العددي والتناسب في الموضوعات المتناقضـة أو المتماثلة ، ومنهـا ما فيـه من إشـارات تدل على حقـائق علمية أثبت العلم صحتهـا في العصور الحـديثـة ، وغير ذلك من وجوه الإعجاز التي ذكرناها والتي لم نذكرها .

نظم القرآن :

أما الآن فنتحدث عن وجه آخر يعتبـر من أهم وجوه الإعجـاز في القرآن إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، وبه أخذ كثير من العلماء ونعني بهذا الوجـه نظم القرآن ووصفه بالبلاغة .

« فـالقرآن إنمـا صار معجزاً؛ لأنه جـاء بأفصـح الألفاظ في أحسن نـظوم التأليف مضمناً أصح المعاني . . . واشتمل على عامود البلاغـة في وضع كـل

---

(١) الإعجاز العلمي ص ٨.

نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الـذي إذا أبدل مكـانه غيـره جاء منـه إما تبـدل المعنى الذي يكـون منه فسـاد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة[1] فقد جاء القرآن في نظمه البـديع ، وتـأليفه العجيب متنـاه في البلاغـة الى الحد الـذي يعجز عنـه البشر .

والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) يـرد إعجاز القـرآن إلى النظم ويسـوق لذلـك أسباباً عدة[2] ، وقبل أن نـذكر هـذه الأسباب يجمـل بنا أن نـورد معنى النظم عند الباقلاني كما يفسره لنا حين يقول : « وليس الإعجاز في نفس الحروف ، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها ، وكـونها على وزن مـا أتى به النبي عليـه السلام ، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتـأخرة ، ووجـود بعضها قبـل بعض ووجـود بعضها بعـد بعض ، والأسباب التي ذكـرهـا البـاقـلاني تتلخص في :

١ ـ إن النـظم يباين المـألوف من كـلام العـرب ، ويتميـز عن أسـاليبهم المعتـادة رغم تعدد مـذاهبه وتصـرف وجوهـه ، فالقـرآن ليس سجعـاً ، وليس شعـراً ، وليس خطابة ، وليس جارياً مجرى الرسائل .

٢ ـ إن العرب رغم فصاحتهم لم يشتمـل كلامهم على القـدر الوافي من الفصاحة والإبـداع سواء في المعـاني أو الفوائـد أو الحكم التي اشتمل عليهـا القـرآن بهـذا الـطول وعلى هـذا القـدر ، وإنمـا تنسب إلى حكيمهم كلمـات معـدودات ، وإلى شـاعـرهم قصـائـد محصورات، ربمـا وقـع فيهـا الاختـلال

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ٢٤ ـ ٢٦ وانظر أثر البلاغة في تفسير الكشاف د. عمر الملاّ جويش ٩٢ ط بغداد .

(٢) التمهيد ١٢٥ ، ١٢٦، إعخاز القرآن ٣٥ ـ ٤٧ .

واعترضها الاختلاف وشملها التكلف ، والقرآن رغم طوله وكثرة سوره وآياته متناسب لم يطرأ عليه الاختلال أو الاختلاف أو التكلف ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدوا فِيهِ اخْتلَافاً كثيراً ﴾ النساء ٨٢ .

فالله يخبرنا أن كلام البشر يقع فيه الاختلال ويطرأ عليه التفاوت إن امتد وطال ، ولكن القرآن بما يتضمنه من القصص والمواعظ ، والإعذار ، والإنذار ، والوعد والوعيد ، والتبشير والتخويف ، والسير المأثورة ، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة ، لا نجد فيه تفاوتاً أو اختلافاً ، وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، والجمال والإبداع ، وعلى حد واحد من حسن النظم وبديع الرصف ، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ الكامل ، أو الشاعر المفلق ، أو الخطيب المصقع رأيت التباين ، ولحظت الاختلاف : فالشاعر يتفاوت شعره بحسب الأحوال ، فهو بارع في معنى معين ، ومقصر في معنى آخر ، ومنهم من يجود في غرض ويضعف في غيره ، ولكل شاعر نصيب من الإجادة في فن دون فن ، ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب . وكذلك نرى الاختلاف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام .

٣ - إن نظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم ، وإنما خرج أيضاً عن عادة كلام الجن ، فالعرب تعتقد في مخاطبة الجن ، وروت لهم شعراً وحكت لهم كلاماً ، والله حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال : ﴿ وإذْ صَرَفنا إلَيْكَ نَفراً مِنْ الجِنّ يَسْتَمِعُون القُرآن فَلَمّا حَضَرُوه قالوا أَنْصِتُوا ، فلمّا قُضيَ وَلَّوا إلى قَوْمِهْم مُنْذِرِين ﴾ الأحقاف ٢٩ والقدر الذي نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فصاحة كلام الإنس ، بل لعله يقصر عنها ، فالجن إذن تقصر عن الاتيان بمثل القرآن كما يقصر البشر عن الإتيان بمثله ، وقال عز وجل : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعت الإنْسُ

والجنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمثْلِ هَذَا القرآنِ لا يأتُـون بمثْلِه وَلَوْ كَـانَ بَعْضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً ﴾ الإسراء ٨٨ .

٤ ـ إن القرآن اختار ألفـاظه ليعبـر عن معاني مبتكـرة في وضع الشـريعة والأحكام والاحتجاج في أصل الدين والرد على الملحدين ، ومعلوم أن تخبـر الألفـاظ للمعاني المتـداولة المـألوفـة أسهل وأقـرب من تخير الألفـاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مستحدثة . ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعـاني والمعاني وفق الألفاظ في انسجام تام وتأليف دقيق كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم .

٥ ـ إن صنـاديد العـرب وأعيانهم ووجـوههم وفصحاءهم سلمـوا بتقـدم القـرآن في الفصاحـة والبـلاغـة ، وأظهـروا العجـز عن معـارضتـه ، ووصفـوه بالحلاوة والـطلاوة ، وأنه يعلو كـلام البشر ولا يُعلى عليـه ، وأما قـوله تعـالى حكـاية عن بعضهم :﴿لـو نشاء لقلنـا مثل هذا ﴾ الأنفـال ٣١ فهـو قـول أهـل الضعف من صنعة البلاغة دون المتقدمين فيهـا ، أو أنهم كاذبـون فيما أخبـروا عن أنفسهم ، إذ لو كانوا صادقين وقـادرين على المعارضـة لما اقتصـروا على الدعوى ، أو اكتفوا بالكلام عن المماثلة .

٦ ـ إن ألفـاظ القرآن بـريئة من التعقيـد والثقل ، خفيفـة على الألسنة ، خـارجة عن الـوحشي المستكره والغـريب المستنكر ، ولـذلك فهـو قريب إلى الأفهام ، تسرع ألفـاظه إلى القلب وتسبق عبـارته إلى النفس ، وهـو مع ذلـك عسيـر المتناول ممتنـع المطلب ، غيـر مطمـع يقدر عليـه أو يـظفـر بـه . أمـا الانحـطاط عن هذه الـرتبة إلى رتبـة الكلام المبتـذل فليس يصح أن تقـع فيـه فصاحة أو بلاغة أو يوضع فيه الإعجاز ا هـ .

ولنـا أن نقول إن مـوضع الإعجـاز في نظم القـرآن لا يعود إلى ألفـاظـه منفردة ؛ لأن العرب كانوا يأتون بهـذه الكلمات صغيـرهم وكبيرهم ، فصيحهم وعييّهم وغبيّيهم على حد سواء ، وقيمة الكلمة ليست ذاتيـة وإنما تخلع عليهـا

من الكلمات مجتمعة . ولا إلى معانيه فقط ؛ لأن المعاني لا وجود لها إلا بالتعبير عنها بالألفاظ . ولا إلى إعراب الكلمات ؛ لأن العرب قادرون على الاتيان بعبارات خالية من اللحن والخطأ ، والإعراب لا دخل له في الفضل والمزية ، وليس هو سبب الفصاحة والبلاغة ، وإن كان أساساً في نظم الكلام .

والنظم كما ذكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ليس في الألفاظ ولا في المعاني ولا في حركات الإعراب ، بل في اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض ، وارتباط الثاني بالأول ، كما يتضح في الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة ، وبين الجملة والجملة في مجموعة من العلاقات المنظمة المتناسقة بين أطراف الكلام ، وبعبارة أكثر إيجازاً النظم عند عبد القاهر هو[1] : الأسلوب كما نسميه الآن ، أو كما يحلو لعبد القاهر أن يسميه : توخي معاني النحو .

وابن عطية (ت ٥٤١ هـ) يؤكد أن إعجاز القرآن كان بسبب نظمه ، وقد أخذ به الجمهور وأهل الفن في صنعة البلاغة فيقول : « وهذا القول الذي عليه الجمهور والحذاق ، وهو الصحيح في نفسه ، والتحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه » .

ووجه إعجازه . . . ترتيب ألفاظ القرآن بحيث تكون اللفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبيين المعنى بعد المعنى وهكذا من أول القرآن إلى آخره ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة[1] .

والعلوي (ت ٧٤٩ هـ) ينقل عن العلماء أقوالهم في وجوه إعجاز القرآن ويختار من بينها الفصاحة والبلاغة وجودة النظم « والذي نختاره من

(١) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي للمؤلف ٣٦٨ - ٣٧٣ نهضة مصر .
(٢) ابن عطية ١ / ٧١ .

ذلك ما رآه الجهابذة من أهل هذه الصناعة فإنهم عوّلوا على خواص ثلاث هي الوجه في الإعجاز . وهذا الخواص هي : الفصاحة في ألفاظه ، والبلاغة في معانيه ، وجودة النظم ، وحسن السياق ، فإنك ترى القرآن منظوماً على أتم نظام وأحسنه وأكمله[1] .

والفيروز ابادي (ت ٨١٧ هـ) ينقل رأياً في كيفية الإعجاز ، ومفهومه[2] : أن العرب لم يعجزوا عن الإتيان بمثل لفظه ، ولا بمثل معناه ، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه ، فإن أنواع كلامهم كانت منحصرة في الأسجاع والأشعار والأراجيز ، فجاء نظم التنزيل على أسلوب بديع لا يشبه شيئاً من تلك الأنواع فقصرت أيدي بلاغاتهم عن بلوغ أدنى مرتبة من مراتب نظمه .

والسيوطي (ت ٩١١ هـ) يرى إعجاز القرآن[3] متعلقاً بفصاحته وبلاغته ، والفصاحة ليست في ألفاظ القرآن ، فإن ألفاظه ألفاظهم قال تعالى : ﴿ قرآناً عَربياً ﴾ يوسف ٢ وقال ﴿ بِلِسَانٍ عَـرَبيٍّ ﴾ الشعراء ١٩٥ . والبلاغة ليست في معاني القرآن ؛ لأن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة قال تعالى : ﴿ وإنه لفي زُبر الأولين ﴾ الشعراء ١٩٦ فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بالنظم المخصوص ، وحسن التأليف ، والتئام الكلمات ، فجاء أسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له .

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لا يتسرب إليه الطعن ؛ لأن بلاغة القرآن وفصاحته لا تخلو منها سورة من سور القرآن ولا آية من آياته ، وإذا كان التحدي قد وقع بأن يأتوا بسورة من مثله فهذا ينطبق على القرآن الكريم

---

(١) الطراز ٣ / ٤٠٤ .

(٢) البصائر ١ / ٦٨ .

(٣) المعترك ١ / ٢٧,٤ .

بأسره ، فليست فيه سورة بليغة دون أخرى ، ولا سـورة اتسمت بجمال النـظم وحسن التـأليف بينما خلت منـه سورة أخـرى ، وهذا يخـالف وجـوه الإعجـاز الأخرى التي ساقها العلماء مثل التحدث عن الأخبـار الماضيـة وسير الأولين ، أو التنبؤ بمـا سوف يكشف عنـه المستقبل ؛ أو الآيـات التي تشير إلى حقـائق علمية ، أو الآيات التي تشمل على ألفاظ يطابق عددهـا ألفاظـاً أخرى تقـابلها في المعنى ، فهذه وجوه تلتمس في بعض الآيات ولا تلتمس في القرآن كله ، وكثيـر من سـور القـرآن ليس فيهـا إشـارات من هـذا القبيـل الـذي وقــع بهـا التحدي .

لذلك كان نظم القرآن أعدل الآراء في وجوه الإعجاز وبيان سببه ، وهذا الـرأي هو الـذي مال إليـه الحذاق من أهـل الصنعة ، وأخـذ به الجمهـور من العلماء .

الباب الثاني

من ألفاظ القرآن واستعمالاتها

التكرار :

ورد التكرار في مواضع شتى من القرآن الكريم ، تكرار في اللفظة ، أو تكرار في العبارة ، أو تكرار في القصة ، وكل أنواع التكرار التي نلمسها في القرآن لم تأت اعتباطاً دون طائل ، وإنما جاءت عن قصد لتؤدي غرضاً معيناً ، وتلمس وتراً حساساً في نفس الإنسان بأن تترك فيه أثراً حسناً إذا أقدم على عمل صالح - أو أثراً قبيحاً إذا تمسك بعمل طالح ولذلك كانت فوائد التكرار عديدة .

أحدها : التأكيد ، بل ما هو أبلغ من التأكيد وأشد تأثيراً .

مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون ﴾ التكاثر ٣، ٤ فالآية الثانية ليست تأكيداً للآية الأولى ؛ لأن التأكيد لا يعطف على غيره بل هو يقدر إرادة المعنى الأول وعدم التجوز . ومن ثم كانت الجملة الثانية تأسيساً لا تأكيداً ، وهذا أبلغ في التعبير ، وجاء العطف بثم ؛ لينبه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول .

ففي التكرار إنذاران ، لا إنذار واحد مؤكد .

فالمقام هنا مقام وعيد وتهديد ، وأن هذا الـوعيد يتكـرر مرة بعـد مرة ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير ، بل هو مستمر دائماً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أدراكَ مَا يَوْمُ الدِّين، ثُمَّ ما أدْراكَ مـا يَـوْمُ الدّين ﴾ الانفطار ١٧ ، ١٨ .

وإذا تأملت في قوله تعالى :

﴿ يا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَـالَمِين ﴾ آل عمران ٤٢ .

وقوله تعالى :

﴿ فَاْذكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ واذْكُرُوه كَمَـا هَدَاكُمْ ﴾ البقـرة ١٩٨

تـرى في الآية الأولى «اصطفاءين»، لا اصـطفاء واحـداً ، وفي الآيـة الثـانيـة « ذكـرين » لا ذكرا واحـداً ، وهو الأقـرب إلى السياق ؛ لأنـه محل طلب فيـه. تكرار الذكر .

الثاني : ومن فوائد التكرار ، زيـادة التنبيه على مـا ينفي التهمة ويجعـل الكلام مقبولاً لدى السامع مثل قـوله تعـالى ﴿ وَقَالَ الّـذِي آمنَ يَا قَـوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إنَّمَا هذه الحيـاةُ الدُّنيـا متَاعٌ وإنَّ الآخِـرَةَ هِيَ دارُ القَـرَارِ ﴾ غافـر ٣٨ ، ٣٩ . فإنـه كرر النـداء لاستمالة قومـه إليه بتكـرار بيان انتسابه إليهم ، وأنه فرد منهم وليس غريباً عنهم ، فيجد لكلامه قبولاً لديهم .

الثـالث : إذا طـال الكـلام وخشي تنـاسي الكـلام الأول ، أعيـد ثـانيـة تجديداً لعهده ، وتطرية لأمره . كقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّـكَ لِلّذينَ عَمِلُوا السُّـوءَ بِجَهَـالَـةٍ ثُمَّ تَـابُوا مِنْ بَعْـدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ النحل ١١٩ .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُون بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أليم ﴾ آل عمران ١٨٨ .

وقوله تعالى :

﴿ إنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمسَ والْقَمَرَ رأيتُهُمْ لِي ساجِدِين ﴾ يوسف ٥ .

وقوله تعالى :
﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُون ﴾ المؤمنون ٣٥ فقوله « أنكم » الثاني بناء على الأول ، إذكاراً به خشية تناسيه .

الرابع : في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى :
﴿ الحَاقَّةُ ما الْحَاقَّة ﴾ الحاقة ١، ٢ .
﴿ القَارِعَةُ ما القارعة ﴾ القارعة ١ .

﴿ إنّا أنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ ﴾ القدر ١، ٢
الخامس : التكرار للتعجب ، كقوله تعالى :

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر ﴾ المدثر ١٩ ، ٢٠ .

فأعيد تعجباً من تقديره وإصابته الغرض على حد قوله : قاتله الله ما أشجعه .

السادس : لتعدد المعنى الذي تعلق به التكرار ، كقوله تعالى :
﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ الرحمن.

فإنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله . وأن الله قد خاطب بها الإنس والجن، وعدّد عليهم نعمه التي خلقها لهم .

وكلما ذكر شيئاً منها طَلب إقرارهم بذلك واقتضاهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وصور شتى .

وقد يقال : إن قوله تعالى في سورة الرحمن :

﴿ يُرْسلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَان ﴾ الرحمن ٣٥ ليس نعمة تستوجب الشكر عليها أو الإقرار بها ، وإنما هو وعيد وتحذير من العقوبة على معصية الله .

نقول : إن التحذير من العقوبة على المعاصي لكي يرتدع عنها الناس نظير الوعد بالنعمة ليرغب فيها الناس ويحرصوا عليها ، فتجنب المعصية والشر يقارب التزام العمل الطيب وفعل الخير ، وكلاهما نعمة يجب الحرص عليها .

ومن هذا النوع قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ يومئذٍ لِلْمُكَذِّبين ﴾ المرسلات .

ذكرت هذه الآية عشر مرات في سورة المرسلات ، لأنه سبحانه ذكر قصصاً مختلفة ، واتبع كل قصة بهذا القول ، فكأنه قال عقب كل قصة : ويل يومئذٍ للمكذبين بهذه القصة ، وكل قصة مخالفة لصاحبتها ، فأثبت الويل لمن يكذب بها .

ومنها في سورة الشعراء :

﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً ومَا كَان أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنين ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحيم ﴾ تكررت في ثمانية مواضع ؛ لأجل الوعظ ، فإنه قد يتأثر بالتكرار من لا يتأثر بالمرة الواحدة .

ومنه تكرار قوله تعالى :

﴿ فَذُوقُوا عَذَابي وَنُذُر﴾ القمر ٣٩ .

كرر ليجدوا عند سماع كل نبأ منها اتعاظاً وتنبيهاً ، وأن كلا من تلك الأنباء مستحق باعتبار يختص به ، وأن يتنبهوا كي لا يغلبهم السرور والغفلة .

ومنه تكرار الأمثال ، كقوله تعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون ﴾ البقرة ١٧ مع قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ من السَّماءِ فيهِ ظُلُمَاتٍ ورعْدٌ وبرقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانهم مِنْ الصَّواعِق حَذَرَ المَوْتِ ﴾ البقرة ١٩ .

والثاني : أبلغ من الأول ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

ومنها تكرار القصص في القرآن ، كقصة إبليس في السجود لآدم عليه السلام ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء ، قال بعضهم : ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه ، وذكر قصة نوح في خمس وعشرين آية ، وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر .

منها : أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفي ما فيه من الفصاحة .

ومنها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة ، ولا أحدث مللا ، فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ، ونقصاناً ، وتقديماً وتأخيراً ؛ ليخرج بذلك عن أن تكون الألفاظ واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنهـا : أن البليغ يجـد في هذا التغييـر والتفرق ميـلاً إلى سماعهـا لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة .

ومنها : ظهور المعنى الـواحد في صـور متباينـة من النظم فيعجبـون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم .

وقد يطوف بالأذهان سؤ ال وهو :

مـا الحكمة في عـدم تكرر قصـة يوسف عليـه السلام ، وسـوقها مسـاق واحد في موضع واحد دون غيرها من القصص ؟

والجواب من وجوه :

الأول : ما فيها من تشبيب النسوة بيوسف ، وفتنتهن بأبدع الناس جمالاً وأرفعهم مثالاً ، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك .

الثـاني : أنها اختصت بحصـول الفرح بعـد الشدة بخـلاف غيـرهـا من قصص القرآن فإن مآلها إلى الوبال ، كقصة إبليس ، وقوم نـوح وهود وصـالح وغيرهم ، فخرجت عن سمت بقية القصص .

الثالث : ما في ذلك من إشارة إلى عجز العرب كأن النبي قال لهم :

إذا كان القرآن من تلقـاء نفسي ، فافعلوا في قصـة يوسف مـا فعلت في قصص سائر الأنبياء .

إذا تكرر الاسم في القرآن فذكر مرتين فله أربعة أحوال :

١ ـ أن يكونا معرفتين .
٢ ـ أن يكونا نكرتين .
٣ ـ أن يكون الأول نكرة والثاني معرفة .
٤ ـ أن يكون الأول معرفة والثاني نكرة .

فالأول : أن يكونا معرفتين :

حينئذٍ يكون الثاني بمعنى الأول ، وتكون « أل » للمعهود الذي سبق ذكره كالعسر في قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا ، إِنَّ مَعَ العُسرِ يُسرا ﴾ الانشراح ٥ ، ٦ .

فالعسر الثاني هو الأول ، ولذلك ورد لن يغلب عسر يسرين . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فاعْبُدْ الله مُخْلِصاً لَهُ الدّين ، ألاَ للّه الدّينُ الخَالِصُ ﴾ الزمر ٢ ، ٣

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئات وَمَنْ تَقِ السَّيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمته ﴾ غافر ٩ .

﴿ إهْدِنَا الصِّراط المُسْتَقيم ، صَرَاطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ الفاتحة ٦ ، ٧ .

وإن كانت هذه القاعدة ليست مطردة ، وهي منقوضة بآيات كثيرة .

كقوله تعالى :

﴿ هَلْ جَزَاء الإحسانِ إلاَّ الإحسان ﴾ الرحمن ٦٠ .

الأول هو العمل ، والثاني هو الثواب .

﴿أنَّ النَّفْس بالنَّفس ﴾ المائدة ٤٥ .

أي القاتلة والمقتولة .

الثاني : أن يكونا نكرتين : فالثاني غير الأول .

والمشهود في تمثيل هذا القسم : « الْيُسر » في قوله تعالى : ﴿ فإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا ، إنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْرَا ﴾ الإنشراح ٥ ، ٦ فاليسر الثاني مخالف للأول ، بخلاف العسر الذي سبق الحديث عنه .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ الله الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ

مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَة ﴾ الروم ٥٤ .

فكل ضعف غير الآخر :

فالضعف الأول : النطفة أو التراب .

والضعف الثاني : هو المودع في الجنين والطفل .

والضعف الثالث : ضعف الشيخوخة .

وكذلك تنكير القوة :

فالقوة الأولى : هي قوة الحركة لاستدعاء اللبن ، والدفع عن نفسه بالبكاء .

والقوة الثانية : هي الكامنة في الإنسان بعد البلوغ .

الثالث : أن يكون الأول نكرة والثاني معرفة ، فهو كالقسم الأول : يكون الثاني فيه هو الأول : كقوله تعالى :

﴿ كَمَا أرْسَلْنَا إلَى فِرْعَونَ رَسُولاً ، فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ ﴾ المزمل ١٥ ، ١٦وقوله تعالى :

﴿ فِيهَا مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ النور ٣٥ .

وهذا منتقض بقوله تعالى :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ هود ٣ .

فالفضل الأول العمل ، والثاني الثواب .

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ ﴾ النحل ٨٨ .

فالمزيد غير المزيد عليه .

الرابع : أن يكون الأول معرفة والثاني نكرة ، فليس له معنى محدد ، بل يتوقف على القرائن .

فتارة يدل على التغاير نحو قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعةُ يُقْسمُ المُجْرِمُونَ ما لبِثوا غيرَ ساعةٍ ﴾ الروم ٥٥ .

فالأولى القيامة ، والثانية الزمن .

وتارة يدل على الاتحاد ، كقوله تعالى :

﴿ وَلَقَـدْ ضَرَبْنَـا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا القُرآن مِنْ كُـلِّ مَثَل لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرون ، قُرْآناً عَرَبياً ﴾ الزمر ٢٧ ، ٢٨ .

ألفاظ يكثر دورانها في القرآن :

من ذلك لفظ « فَعَلَ » .

ويأتي كثيراً كناية عن أفعال متعددة ، وفائدته الاختصار .

كقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلون ﴾ المائدة ٧٩ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلوا ما يُوعَظُون بهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ النساء آية ٦٦ .

وكقـوله تعـالى : ﴿ فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلوا ﴾ البقـرة ٢٤ أي فـإن لم تأتوا بسورة من مثله ، ولن تأتوا بسورة من مثله .

وحيث أسندت هذه اللفـظة الى الله سبحانـه فهي محمولـة على الوعيـد الشديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيل ﴾ الفيل آية ١ وقوله ﴿ وَتَبَيَّن لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ إبراهيم ٤٥ .

ومن ذلك لفظ « كان » .

وقـد وقـع في القـرآن الإخبـار عن ذات الله تعـالى وصفـاتـه بلفظ كـان كثيراً» .

فمن الإخبار عن صفاته تعالى :

﴿ وَكَانَ الله سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ النساء ١٤٨

﴿ وكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً ﴾ النساء ١٣٠ .

﴿ وكانَ اللَّهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ الأحزاب ٥٩ .

﴿ وكُنّا بِكُلِّ شَيء عالمين ﴾ الأنبياء ٨١ .

﴿ وكُنّا لِحُكْمِهِمْ شَاهدين ﴾ الأنبياء ٧٨ .

فحيث وقع الإخبار بكان عن صفاته الذاتية ، فالمراد الإخبار عن وجودها ، وأنها لم تفارق ذاته ، ولهذا يقررها بعضهم بما زال حتى لا يسبق إلى الوهم أنها تفيد الانقطاع .

وقد يراد بها الإخبار عن صفة فعلية ؛ لبيان قدرته عليها في الأزل نحو : كان الله خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً .

أو لتفيد ابتداء الفعل وإنشاءه نحو :

﴿ وَكُنّا نَحْنُ الْوَارِثين ﴾ القصص ٥٨ .

فإن الإرث إنما يكون بعد موت المورث ، والله سبحانه مالك كل شيء على الحقيقة من قبل ومن بعد .

ومن حيث أخبر بها عن صفات الآدميين ، فالمراد التنبيه على أنها في الإنسان غريزة وطبيعة مركوزة في نفسه نحو قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ الإسراء ١١

﴿ إنّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ الأحزاب ٧٢

وحيث أخبر بها عن أفعالهم دلت على اقتران مضمون الجملة بالزمان أي تدل على الماضي المنقطع نحو ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ الأنبياء ٩٠ . ومن هذا الباب الحكاية عن النبي عليه السلام بلفظ :

« كـان يصـوم » « وكنـا نفعل » وهـو عند أكثـر الفقهاء والأصـوليين يفيـد الدوام .

قال أبو بكر الرازي :

كان في القرآن على خمسة أوجه :

بمعنى الأزل والأبد : كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ النساء ١٧٠ .

وبمعنى المـاضي المنقطع كقوله تعـالى : ﴿ وَكَـانَ فِي الْمَـدِينَـةِ تَسْعَـةُ رَهْطٍ ﴾ النحـل ٤٨ . وهـو الأصـل في معنى كـان ، كمـا تقـول : كـان زيـد مريضاً .

وبمعنى الحال ، كقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاس ﴾ آل عمران آية ١١٠

وبمعنى الاستقبال ، كقوله تعالى : ﴿ يـوفـون بـالنـذر وَيَخَافُـونَ يَوْماً كَـانَ شرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ الدهر ٧ وبمعنى صار ، كقولـه تعالى : ﴿ وَكَـانَ مِنْ الكَافِرين ﴾ البقرة ٣٤ .

الزيادة في بنية الكلمة :

إذا كـان اللفظ على وزن من الأوزان ،ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منـه، فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثـر مما تضمنـه الأول ؛ لأن الألفاظ أدلـة على المعاني ، فإذا زيدت في الألفاظ ، وجب الزيادة في المعـاني بالضـرورة فمثلاً قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عزِيزٍ مُقْتَدِر ﴾ القمر ٤٢ .

كلمة مقتدر أبلغ من قـادر ؛لأن مقتدر تـدل على أنه قـادر متمكن القدرة لا يـرد شيء عن اقتضـاء قـدرتـه ، ويسمى هـذا قـوة اللفظ لقـوة المعنى ﴿ واصطبر ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِه ﴾ مريم ٦٥

أبلغ في الأمر بالصبر من ﴿ اصبر ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيها ﴾ فاطر ٣٧
أبلغ من يتصارخون .
وقوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيها ﴾ الشعراء ٩٤

والكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلًا على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكبّ مرة بعد أخرى حتى يستقر في مقرها .

ومنه الزيادة بالتشديد : فإن « ستّاراً » و « غفّاراً » أبلغ من ساتر ، وغافر ، ولهذا قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ نوح ١٠

ومن هذا رجّح بعضهم معنى ﴿ الرحمن ﴾ على معنى ﴿ الرحيم ﴾ ، لما فيه من زيادة البناء ، وهو الألف والنون .

هذه الزيادة تأتي في بنية الكلمة .
وثمة زيادة من نوع آخر قد تأتي بحرف أو كلمة .
وأكثر العلماء ينكر اطلاق هذه العبارة في كتاب الله ، ويسمونه التأكيد .

قال ابن جني : كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى .

وقد تكون الزيادة بالحرف كقوله تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ المائدة ١٣
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ آل عمران ١٥٩

وقد تكون الزيادة بالفعل ، كقوله تعالى :

﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً ﴾ مريم ٢٩ .

كان هنا زائدة ، وإلا لم يكن فيه إعجاز ؛ لأن الرجال كلهم كانوا في المهد . ومنه زيادة أصبح كقوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِين ﴾ المائدة آية ٥٣ . كقولهم : أصبح العسل حلوا .

وقال الرماني : أن ﴿ أصبح ﴾ في هذه الآية ليست زائدة ، لأن العادة جرت على أن من به علة بالليل يرجو لها الفرج عند الصباح ، فاستعمل أصبح ؛ لأن الخسران جاءهم في الوقت الذي يرجون فيه الفرج :

وقد اختلفت في وقوع الزائد في القرآن .

فمنهم من أنكره كالمبرد وثعلب ، وزعموا أن الدهماء من العلماء والفقهاء ، والمفسرين هم الذين يقولون بالزيادة في القرآن .

ومنهم من أنكر الزيادة في الكلام مطلقاً ، وقال ليس في كلام العرب زائد ؛ لأنه تكلم بغير فائدة ، وما جاء منه محال على التوكيد وهو رأي ابن جني وابن السراج .

ومنهم من جوزه ، وجعل وجوده كالعدم ، وهو أفسد الطرق .

وإذا كانت الزيادة تأتي في الحروف وفي الأفعال ، فإنها لا تأتي في الأسماء، وقد نص أكثر النحويين على أن الزيادة لا تكون في الأسماء وإن كان قد وقع في كلام كثير من المفسرين الحكم عليها بالزيادة ، كقول الزمخشري في قوله تعالى :

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ البقرة ٩ .

إن اسم الجلالة مفخم ، ولا يتصور مخادعتهم لله تعالى .

وحق الزيادة أن تأتي في آخر الكلام أو حشوه ، ولا تقع في أول الكلام ، لما في ذلك من التناقض ، إذ معنى الزيادة أنه يمكن طرحها والاستغناء عنها .

ولذلك ضعف رأي من يقول بزيادة ﴿ لا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ القيامة ١

والظاهر أنها رد لكلام تقدم في إنكار البعث ، أي ليس الأمر كما تقولون ، ثم قال بعده : ﴿ أقسم بيوم القيامة ﴾ .

الترادف :

وفي القرآن الكريم ألفظ نظن بها الترادف وليست منه ، فمن ذلك « الخوف والخشية » لا يكاد اللغوي يفرق بينهما ، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف ، وهي أشد الخوف .

فالخشية تكون من عظم المخشى ، وإن كان الخاشي قوياً .

والخوف يكون من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أميراً بشيراً .

ولذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ الرعد ٢١ .

فإن الخوف من الله لعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حالته ، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالماً بالحساب ، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ومن ثم خصت الخشية بالله تعالى .

فإن قيل ورد ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ النحل ٥٠

كان الجواب : إن الخاشي من الله بالنسبة إلى عظمة الله ضعف ، فيصح أن يقول : ﴿ يخشى ربه ﴾ لعظمته ، ﴿ ويخاف ربه ﴾ لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى .

والغبطة والمنافسة كلاهما محمود ولكن هناك فرق بينهما، فالغبطة هي تمني مثل ما للغير دون أن يتمنى زوال النعمة عنه ، فإن انضم إلى ذلك الجد والتشمير إلى مثله ، أو ما هو خير منه ، فهو منافسة يقول تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون ﴾ المطففين ٢٦ .

ومنه ﴿ السبيل ﴾ و ﴿ الطريق ﴾ .

وقد كثر استعمال السبيل في القرآن كقوله تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٢٧٣ .مراد به الخير .

ولم يقع ذكر الطريق مراداً به الخير إلا مقترناً بوصف أو بإضافة كقوله تعالى :

﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ﴾ الأحقاف ٣٠ .

ومن ذلك ﴿ جاء ﴾و﴿ أتى ﴾ .

جاء يقال في الجواهر والأعيان .

وأتى يقال في المعاني والأزمان .

وفي مقابل ذلك ذهب ومضى .

يقال : ذهب في الأعيان .

ويقال : مضى في الأزمان .

ولهذا يقال مضى حكم فلان ، ولا يقال : ذهب ، لأن الحكم ليس من الأعيان وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ يومئذ بِجَهَنَّم ﴾ الفجر ٢٣ لأنها

عين . ﴿ ولمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ ﴾ البقرة ٨٩ ، لأنه عين

ثم يقـول : ﴿ وأَتَيْنَاكَ بـالحقِّ وإنَّا لَصَـادِقُـون ﴾ الحجـر ٦٤ . حيث لم يكن الحق مرئياً .

ومن ذلك ﴿ مدّ ﴾ و ﴿ أمدّ ﴾ .

فأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب :

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ ﴾ الطور ٢٢
﴿ وَظِلٍّ مَمْدُود ﴾ الواقعة ٣٠

والمد في المكروه :
﴿ وَنَمُدُّ له مِنْ العَذَابِ مَدًّا ﴾ مريم ٧٩ .

ومن ذلك ﴿ التمام ﴾ و ﴿ الكمـال ﴾ وقد اجتمعا في قوله تعالى :

﴿ الْيَوم أكملْتُ لكمْ دِينَكُمْ وأتممْتُ عليكمْ نِعْمَتِي ﴾ المائدة ٣ والعطف يقتضي المغايرة ، فالإتمام لإزالة نقصان الأفضل .

والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل .
ولهذا كان قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَة ﴾ البقرة ١٩٦ . أحسن من

﴿ تامة ﴾ فإن التمام من العدد عام ، وإنما بقي إحتمال نقص في صفاتها .
﴿ فتم ﴾ يشعر بحصول نقص قبله .
و﴿ كمل ﴾ لا يشعر بذلك .
ومن هذا قولهم : رجل كامل ، إذا كان جمع خصال الخير .
ورجل تام ، إذا كان غير ناقص الطول .
ويقولون : القافية تمام البيت ، ولا يقولون كما له .

التفســير :

وتفعله العرب في مواضع التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هُـوَ الحَيّ القيّوم لَا تَأْخُذُهُ سِنةٌ ولَا نَوْم ﴾ البقرة ٢٥٥ فقوله : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَـةٌ ولا نَوْم ﴾ تفسير للقيوم .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذَا مَسَّهُ الشَّـرُّ جَزَوعـا ، وإذَا مَسَّـهُ الْخَيْرُ مَنُـوعاً ﴾ المعـارج ١٩ ، ٢١ تفسيـراً لمعنى الهلع وقـوله تعـالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيسْتَحْيُون نِسـاءَكُم ﴾ البقرة ٤٩ . فيذبحون وما بعده تفسير للسوم ، ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .

قـال ابن جني : ومتى كانت الجملة تفسيـراً لم يحسن الوقـوف على ما قبلهـا دونها ؛ لأن تفسيـر الشيء لاحق بـه ، ومتمم له ، وجـار مجـرى بعض أجزائه ، كالصلة من الموصول ، والصفة من الموصوف .

وقد يكون التفسير لبيان العلة والسبب ، كقـوله تعـالى : ﴿ فلا يَحْـزُنْكَ قَوْلُهُمْ إنَّا نَعْلَمُ مـا يَسِرُّونَ وَمَـا يُعْلِنُون ﴾ يسٓ ٧٦ وليس هـذا من قولهم ، وإلا لما حزن الـرسول عليـه السلام ، وإنمـا يجيء لبيان السبب في أنـه لا يحزنـه قولهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إنَّ الْعِـزَّةَ لِلّهِ جَميعاً ﴾ يـونس ٦٥ ولو كانت الآيتان لتفسير ما قبلها وليست لبيان السبب ، لكانت أن مفتـوحة وليست مكسورة .

أسرار الفواتح والسور

يحتوي القرآن الكريم على مائة وأربع عشرة سورة
وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز
إما بالثناء عليه عز وجل ، والثناء قسمان :
إثبات لصفة مدح ، أو تنزيه من صفات النقص .

فالإثبات نحو ﴿ الحمد لله ﴾ في سورة الفاتحة ، والأنعام ، والكهف وسبأ ، وفاطر ، فهذه خمس سور .

﴿ وتبارك ﴾ في سورتين : الفرقان ، والملك .

والتنزيه من صفات النقص نحو : سبحانه ، وسَبّح ، ويُسَبِّح وسبح وهي على الترتيب : سورة الإسراء ، والحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، وسورة الأعلى ، فهذه سبع سور .

فالثناء على الله ورد - إذن - في أربع عشرة سورة ، نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لنفي صفات النقص .

وقد يكون الاستفتاح بحروف الهجاء نحو :

الٓمٓ ، الٓمٓصٓ ، الٓمٓرٓ ، وكٓهيعٓصٓ ، طه ، طسٓمٓ ، حمٓ ، عٓسٓقٓ ، قٓ ، نٓ .
وذلك في تسع وعشرين سورة .

وإذا تأملت الحروف التي افتتح بها السور وجدتها نصف حروف المعجم : أربعة عشر حرفاً ، منها ما بني على حرف واحد ومنها ما بني على حرفين ، ومنها ما بني على ثلاثة أحرف ، ومنها ما بني على أربعة أحرف ، ومنها ما بني على خمسة أحرف .

وقد اختلف العلماء في الحروف المتقطعة التي وردت في أوائل السور فمنهم من قال : إنها هذا علم مستور ، وسر محجوب استأثر الله به ، ولهذا قال الصديق رضي الله عنه : في كل كتاب سر ، وسره في القرآن أوائل السور . . . وقد أنكر المتكلمون هذا القول ، وقالوا : لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يفهمه الخلق لأن الله تعالى أمر بتدبره ، والاستنباط منه ، وذلك لا يمكن إلا بالإحاطة بمعناه ، ولذلك فإن المراد منها معلوم ، وذكروا في ذلك وجوهاً جمّة منها القريب ومنها البعيد .

ومن هذه الوجوه ما رواه ابن عباس : أن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى :

فالألف من الله ، واللام من لطيف ، والميم من مجيد ، قال ابن فارس : وهذا وجه جيد ، وله في كلام العرب شواهد : قلنا لها قفي ، فقالت : ق . أي وقفت .

ومنها ما روي عن ابن عباس أيضاً .

فقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ أنا الله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفْصِل .

وقوله تعالى : ﴿ الٓمٓر ﴾ أنا الله أرى .

ومنها قولهم : إن لكل كتاب سراً ، وسر القرآن فواتح السور ، والمراد بالسر هو الذي لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم .

ومنها أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغَوا فيه ، فأنزل الله هذا النظم

العجيب ؛ ليتعجبوا منه ، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم ، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترق القلوب ، وتلين الأفئدة .

ومنها أن القرآن المعجز مكون من هذه الأحرف التي جاءت مقطعة ومؤلفة، ولم يخرج عن الأحرف التي يستعملونها في كلامهم .

الفرق بين الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل :

يقول البيانيون : إن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، وإن الإسم يدل على الاستقرار والثبوت ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر :

فقوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيد ﴾ الكهف ١٨ . فعبر بالإسم وقال ﴿ باسط ﴾ ؛ ليشعر بثبوت الصفة ، ولو قيل « يبسط » لم يؤد الغرض ؛ لأنه حينئذ يتجدد له شيء ، ولم يؤذن للكلب بمزاولة البسط مرة بعد مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ ﴾ فاطر ٣ عبر بالفعل فقال ﴿ يرزقكم ﴾ ليفيد تجدد الرزق شيئاً بعد شيء . ولو قال « رازقكم » لفات هذا المعنى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُون ﴾ يوسف ١٦ فهم في وقت المجيء كانوا آخذين في البكاء يجددونه شيئاً بعد شيء، وهذا هو سر التعبير بالفعل ،والإعراض عن التعبير بالاسم .

ومن هذا يعرف لم قيل ﴿ الذين يُنْفِقُون ﴾ في غير موضع ولم يقل « المنفقين » ؟ ولم قيل « المؤمنون » والمتقون » كثيراً في القرآن ؟

لأن النفقة شأنها الانقطاع والتجدد . بخلاف الإيمان والتقوى فهما حقيقة تقوم بالقلب يدوم بمقتضاها وإن غفل عنها .

وأحياناً يعبر عن هذه الصفات بالفعل فيقول « يؤمنون وينفقون

ويفلحـون» فجاءت بالاستعمـالين ،ولكلٍّ محل مـا يليق به، فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها يعبر عنها بصيغـة الفعل . وحيث يـراد ثبوت الاتصـاف بها ، فالتعبير يكون بصيغة الاسم .

وهذا الذي ذكرناه من دلالـة الاسم على الثبوت ، والفعـل على التجدد والحدوث هو المشهود عند البيـانيين .

وأنكر بعض العلماء هذا القول وقال :

هذا الرأي غريب ولا مستند له نعلمه .

وقال ابن المنير : طريقة العرب تدبيج الكلام وتلوينـه ، ومجيء الفعلية تـارة ، والاسمية تـارة أخـرى ، من غيـر تكلف لمـا ذكـروه وقـد رأينـا الجملة الفعليـة تصدر من العـرب الخلص، اعتماداً على أن المقصـود حـاصـل بـدون التأكيد ، ولا شيء بعـد قولـه تعالى : ﴿ آمن الـرسول بمـا أُنزل إليـه ﴾ البقرة ٢٨٥ .

على أن التأكيد جاء في كلام المنافقين فقال تعالى :

﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ البقرة ١١ .

يريد أن الجملة الفعلية التي لا تدل على الاستمـرار والثبوت تكـون في حاجة إلى توكيد إذا أخذنا برأي البيانيين ، وقد جاءت في قـوله تعـالى ﴿ آمن الرسول ﴾ دون تأكيد مع إيفائها بالغرض .

وأن الجملة الاسميـة التي تـدل على الاستمــرار والثبوت، لم تكن في حاجة إلى توكيد ، ولكنها جاءت مؤكدة في قوله تعالى :

﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ .

وفي ذلك تسفيه لما زعمه البيانيون .

تذكير المؤنث وتأنيث المذكر

ويكثر تذكير المؤنث فيؤول بمذكر كقوله تعالى :

﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ البقرة ٢٧٥ .

فتؤوّل الموعظة بالوعظ .

وقوله تعالى : ﴿ وأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ قَ ١١ .

على تأويل البلدة بالمكان ، وإلا لقال « ميتة »

وقوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رأى الشَّمْسَ بـازِغةً قـالَ هَذَا رَبِّي ﴾ الأنعـام آية ٧٨ . أي : الطالع ربي .

وقوله تعالى : ﴿ وأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً ﴾ الانعام .

لأن السماء بمعنى المطر ، فؤوّل بالمذكر .

ومنه الآية المشهورة في هذا الباب .

﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ المُحْسِنِين ﴾ الأعراف ٥٦ .

ولم يقل « قريبة » ذكرت على معنى الإحساس .

وأما قوله تعالى : ﴿ السَماءُ منفَطِرٌ بِهِ ﴾ المزمل ١٨ .

ففيه أقوال :

منهـا : أن السماء تذكر وتؤنث ، فجاء منفطر على التذكير .

ومنها : أنه ذكر حملاً على معنى السقف .

ومنها : أن المعنى على حذف مضاف ، أي : ذات انفطار .

وعلى العكس من ذلك جاء تأنيث المذكر .

كقوله تعالى : ﴿ الذِينَ يَرِثُون الفِردَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾ المؤمنون آية ١١ . فأنث الفردوس ، فقال « فيها » ولم يقل « فيه » ؛ لأنه مذكر ، حملاً على معنى الجنة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبوا بِالساعة وأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعةِ سَعِيراً ، إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بعيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيراً ﴾ الفرقان ١١ ، ١٢ .

فـ « سعيراً » مذكر ، ثم قال : « إذا رأتهم » على تأويل السعير بمعنى النار .

وسئل المبرد عن الفرق بين قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتها رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ يونس ٢٢

وبين ﴿ وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفةً ﴾ الأنبياء ٨١ .

كما سئل عن الفرق بين قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوية ﴾ الحاقة وبين قوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُمْ أعجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ القمر ٢٠ .

فقال : كل ما ورد عليك من هذا الباب ، فلك أن ترده إلى اللفظ تذكيراً ، ولك أن ترده إلى المعنى تأنيثاً .

وهذه قاعدة في اسم الجنس ، فتأنيثه غير حقيقي .

فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر ، وتارة معنى الجماعة فيؤنث .

قال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ الّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحَةَ ﴾هود ٩٤ .

وقال في قصة صالح ؛ ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ هود ٦٧ .

وقال : ﴿ إنّ البَقَر تَشابَهَ عَلَيْنَا ﴾ البقرة ٧٠ .

وقال : ﴿ إنّ البقر تَشَابَهَتْ عَلَينا ﴾

قال بعض العلماء: إن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح فيجيء فيها التذكير .

والصيحة تطلق ويراد بها الوحدة من المصدر ، فيكون التأنيث أحسن .

السؤال بأو والسؤال بأم

ينبغي أن يعلم أن السؤال بأو غير السؤال بأم .

فإذا قلت : أزيد عندك أو عمرو ؟ فجواب هذا : زيد أو عمرو .

وإذا قلت : أزيد عندك أم عمرو ؟ فجواب هذا : نعم أو لا .

ولو قلت في جواب الأول : نعم أو لا ، كان محالاً ؛ لأنك حين تسأل بأم تدعي أن أحدهما عنده وتريد التعيين ، أهو زيد أم عمرو .

قال الزمخشري : فأنت مع أو عالم بأن أحدهما عنده ، مستفهم عن التعيين ، ومع أم مستفهم عن واحد منهما ، فإذا قلت : أزيد عندك أم عمرو ؟

فمعناه : هل واحد منهما عندك ؟ ومن ثم كان جوابه بنعم أو لا مستقيماً ، ولم يكن ذلك مستقيماً في « أو » لأن السؤال عن التعيين .

ومن أساليب القرآن ذكر الرحمة والعذاب :

فحيث ذكر الرحمة والعذاب ، أن يبدأ بذكر الرحمة ، كقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِبُ مَنْ يَشَاء ﴾ المائدة ١٨ .

﴿ إنّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيم ﴾ فصلت ٤٣ .

وقول النبي ﷺ حكاية عن ربه :
« إن رحمتي ، سبقت غضبي » .

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً .

منها قوله تعالى في سورة المائدة ٤٠ .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والْأرضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاء واللَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ﴾

لأنها وردت في ذكر قطاع الطريق والمحاربين والسراق ، فكان المناسب تقديم ذكر العذاب ، وختمها بالقدرة ، مبالغة في الترهيب؛ لأمن توعده قادر على إنفاذ الوعيد .

ومنها في سورة العنكبوت ٢١ .

﴿ يُعَذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُون ﴾ .
لأنها في سياق حكاية إنذار إبراهيم لقومه .

ومنها في آخر سورة الإنعام : ﴿ إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ ١٦٥ . لأن سورة الأنعام كلها مناظرة للكفار ووعيد لهم ، فكان المناسب تقديم ذكر العقاب ترهيباً للكفار ، وزجراً لهم عن الكفر والتفرق ، وزجراً للخلائق عن الجور في الأحكام . ونحو ذلك في آخر سورة الأعراف .

﴿ إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وإنَّهُ لَغَفورٌ رَحِيم ﴾ ١٦٨ .

لأنها في سياق ذكر معصية أصحاب السبت، وتعذيبه إياهم فتقديم العذاب مناسب : والفرق بين آية الأعراف التي جاءت باللام في قوله « لسريع » وبين سورة الإنعام التي جاءت بدون اللام في قوله « سريع » .

إن اللام تفيد التوكيد ، فأفادت سرعة العقاب ؛ لأن العقاب هنا

عاجل ، وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة ، وأداء الجزية بعد المسخ .

بخلاف العقاب المذكور في سورة الإنعام ، فإنه مؤجل ، بدليل قولـه : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فينبّئكم بما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾ ١٦٤ فاكتفى فيه بتأكيد « إنّ » .

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلًا اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بإنّ .

السموات والأرض :

ورد ذكر السماء في القرآن مفرداً ومجموعاً .

وحيث ورد ذكر الأرض في القرآن فإنها مفردة ، كقوله تعالى :

﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ ومِنْ الأرض مِثْلَهُنّ ﴾ الطلاق ١٢ .

والحكمة في إفراد الأرض : أنهـا بمنزلـة السفل والتحت ، فهي وصف للمكان المحسوس فلا معنى لجمعها ، كما لا يجمع الفوق والتحت ، والعلو والسفل . فإذا قصد الإخبار عن جزء من هذه الأرض ، خرجت من معنى السفل الذي يقابل العلو ، فجاز أن تثنى إذا ضم إليه أجزاء ، ومنه قول الرسول ﷺ : « طوّقه من سبع أرضين » فاعتمد ذات الأرض وتعيين أجزائها دون الوصف بكونها تحت أو أسفل . فحيث أراد الذات والعدد أتى بلفظ يدل على التعدد كما في قوله تعالى : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ .

كما أن الأرض صغيرة جداً بالنسبة إلى السموات وسعتها ، فهي كحصاة في صحراء ، وهي وإن تعددت كالواحد القليل ، فاختير لها اسم الجنس .

أما جمع السموات ، فإن المقصود بها ذاتها دون معنى الوصف فلهذا جمعت جمع مؤنث .

فإن أريد الوصف الشامل للسموات ، وهـو معنى العلو والفوق ، أفـردته كالأرض بدليل قوله تعالى :

﴿ أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسِف بكم الأرض ﴾ الملك ١٦ .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمَ مَنْ فِي السمَـاءِ أن يُـرسِـلَ عليكم حَـاصِبـاً ﴾ الملك ١٧ .
فليس المراد سماء معينة ، وإنما المراد الوصف الشامل .

وتأمل كيف جاءت السماء مفردة في قوله تعالى :
﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ الذاريات ٢٣ .

أراد أنه رب لهذين الجنسين ، أي رب كـل مـا علا وسفل .

وجـاءت مجمـوعـة في قـولـه تعـالى : ﴿ سبـح لله مـا في السمــوات والأرض ﴾ في جميـع السور ، لأن المـراد الاخبـار عن تسبيـح سكـانهـا على كثرتهم وتباين مراتبهم ، فلم يكن بد من جمع محلهم .

وجاءت مجموعة في قوله تعالى :

﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ في السّمواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ الله ﴾ النمـل ٦٥ ؛ لأن المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة من السموات .

وجاءت مفردة في سياق الإخبار بنزول الماء منها ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ يـونس ٣١ ؛ لأن المراد الـوصف ، وليس المراد نزول الماء من ذاتها .

الريـاح :

ذكرت في القرآن جمعاً ومفردة .

فحيث ذكرت في سياق الرحمة جاءت مجموعة . كقوله تعالى :

﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ الحجر ٢٢ .

﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ الروم ٤٦ .

﴿ اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرياحَ فتُثيرُ سَحَاباً ﴾ الروم ٤٨ .

وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة كقوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ﴾ الاحزاب ٩ .

﴿ وأمَّا عَادٌ فأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة ﴾ الحاقة ٦ .

﴿ وَفي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم الرِّيحَ العَقِيم ﴾ الذاريات ٤١ .

ولهذا قال الرسول ﷺ :

« اللهم اجعلْها رياحاً ولا تجعلْها رِيحاً » .

وعلة ذلك : أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، وإذا هاجمت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر حدتها ، فينشأ منها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت في الرحمة رياحاً .

وأما في العذاب ، فإنها تأتي من وجه واحد ، ولا معارض ولا مدافع ، ولهذا وصفها الله بالعقيم ، أي تعقم ما مرت به .

هذه قاعدة مطردة إلا في مواضع يسيرة لحكمة .

من هذه المواضع قوله تعالى :

﴿ هُوَ الّذِي يُسَيِّرُكُمْ في البَرّ والْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ في الفُلْك وجَرَيْن بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفرِحُوا بِهَا جَاءَتْها رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ يونس ٢٢ .

فذكر ريح الرحمة بلفظ المفرد خلافاً للقاعدة لوجهين :

أحدهما لفظي ؛ ليقابل بها ريح العذاب التي لا تكون إلا مفردة ـ .

والثاني معنوي ، وهو أن تمام الرحمة في البحر أن تكون بوحدة الريح لا باختلافها ؛ فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد ، فإن اختلفت عليها الرياح وتصادمت كانت سبب الهلاك والغرق ، فالمطلوب في هذا الموضع ريح واحدة ، ولهذا أكد هذا المعنى فوصفها بأنها طيبة دفعا لتوهم أن تكون عاصفة ، بل هي ريح يفرح بطيبها .

النور والظلمات

وجاء لفظ النور مفرداً والظلمات جمعاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور ، والَّذِينَ كَفَروا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت يُخْرِجُونَهُمْ مِن النّورِ إِلَى الظُّلُمَات ﴾ البقرة آية **٢٥٧** . وذلك لأن طريق الحق واحد ، وطرق الباطل متشبعة متعددة ، ولما كانت الظلم بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طرق الجنة ، بل هما هما ، جمع سبيل الباطل ووحد سبيل الحق ، أي جمع الظلمات وأفرد النور يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتّبِعُوه ولاَ تَتّبِعوا السُبُلَ فَتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيله ﴾ الأنعام **١٥٣** .

ولذلك فإن الله وحّد الولي فقال : ﴿ اللَّهُ وليُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وجمع أولياء الكفر فقال : ﴿ والذين كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوت ﴾ فتناسب جمع الظلمات وهي : طريق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ، ووحد النور وهو : دين الحق .

ومن الأفراد والجمع لفظ **اليمين والشمال** .

فقد جاء كل منهما مفرداً كقوله تعالى :

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِين ﴾ المعارج **٣٧** .

وجاء كل منهما مجموعاً كقوله تعالى :

﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ ﴾ الأعراف ١٧

وقد جاء جمع الشمال وأفراد اليمين كقوله تعالى : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجّداً لِلَّه ﴾ النحل ٤٨ .

قال الفراء : كأنه إذا وحد ، ذهب إلى واحد من ذوات الظلمة ، وإذا جمع ذهب إلى كلها .

فلما كانت اليمين جهة الخير والصلاح وأهلها هم الناجون ، أفردت . ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت .

الجنة والنار :

وحيث ذكرت الجنة في القرآن ، فإنها تجيء تارة مجموعة ، وتارة غير مجموعة ، والنار لم تقع إلا مفردة . وفي ذلك وجهان :

الأول : لما كانت الجنات مختلفة الأنواع ، حسن جمعها وإفرادها . ولما كانت النار مادة واحدة ، أفردت باعتبار الجنس .

الثاني : أنه لما كانت النار تعذيباً والجنة رحمة ، ناسب جمع الرحمة ، وإفراد العذاب ، على غرار جمع الريح في الرحمة ، وأفرادها في العذاب .

فمثال الجنة مفردة قوله تعالى :

﴿ واللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِه ﴾ البقرة ٢٢١ .

ومثالها جمعاً قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيَن فِيهَا أَبَدًا ﴾ المائدة ١١٩ .

ومثال النار التي لم تأت في القرآن إلا مفردة ، قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين ﴾ آل عمران ١٣١ .

الصديق والشفيع :

أفرد الصديق ، وجمع الشفيع ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِين ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيم ﴾ الشعراء ١٠٠ ، ١٠١
والحكمة في ذلك كثرة الشفعاء في العادة ، وقلة الصديق ، قال الزمخشري : ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده بشفاعته رحمة له ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة .

وأما الصديق فأعز من الكبريت الأحمر وبيض الأَنُوق، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق ، فقال : اسم لا معنى له .

القرآن محاولة لفهم عصري

هـذا الكتاب من تـأليف الدكتـور مصـطفى محمـود ، وقـد طبـع ثـلاث مرات ، وأثار نشره ـ كما يقول المؤلف ـ اهتماماً بالغـاً ، ولقي إقبالاً منقـطع النظير ، خـاصة في أوسـاط الشباب الـذين أقبلوا على قراءتـه بفهم واستيعاب واستزادة .

وقـد تعـرض المؤلف في هــذا الكتـاب لبعض القضــايـا الفلسفيــة ، كالإنسان أهو مخيّر أم مسيـر ؟ وبعض القضايـا الغيبية : مثـل الساعـة والغيب والبعث . كما تعرض لكلمة التوحيد وإعجاز القرآن .

أخطاء لغوية وبلاغية :

ولست بصـدد إبراز مـا وقع فيـه الكاتب من أخـطاء لغويـة أو بلاغيـة لا يتحملها التفسير ، أو تناقضات بين ما يذكره في موضع مؤيداً ، وما يذكـره في موضع آخر مفنداً ، فهذه الأخطاء وغيرها قد كفانـا مئونـة الرد عليهـا كثير ممن تناول هذا الكتاب بالتحليل والنقد ، حتى ألّف بعضهم في الرد على شطحات مصطفى محمود كتاباً كاملاً تعقب فيه كل موضع بالنقد والتفنيد .

ولعل الذي أغراهم بذلك أن مصطفى محمود طبيب قد تخـرج في كلية

الـطب ، ولم يتلق العلم بطريقـة منظمـة في فرع من فـروع الـدين ، ومن ثم فحين يعرض آراءه الفكرية والفلسفية من خلال القرآن وتفسيره، يبدو لهم وكـأنه اقتحم ميداناً لم يتخصص فيه .

ونحن لا نـريد أن نتجنى فنـدعي أن تفسيـر القـرآن حكـر على فئـة من العلماء الذين ينبغي أن يكونوا قد تخرجوا في الأزهر، أو تلقوا العلم في إحدى الكليـات الدّينيـة ، بحيث لا يحق لغيرهم أن يقتحمـوا مجال تفسيـر القرآن ، ويـزجوا بـأنفسهم داخل محـرابه ، وإنمـا ينبغي لمن يعرض لتفسيـر القرآن أن تتوافر لديه أدوات التفسير ومؤهلات المفسر : من معرفـة عميقة بعلوم القـرآن سـواء أكانت تتعلق بـالعبارة اللفـظية ، كعلم الغـريب ومفردات اللغـة ، وعلم التصـريف ، وعلم النحـو ، ومعـرفـة القـراءات المنقـولـة عن الأئمـة السبعـة ورواتهم ، أو كانت معنوية تتعلق بفهم المعاني القرآنية ، كمعرفة علوم الفلك والإنسان والحيوان وما في الكون من سماء وأرض ، ونجوم ودواب ، ومعـادن وجبـال وأنهار ، وغيـر ذلك . وعلم الاعتقـاد المسمى بأصـول الـدين ، وعلم التـاريخ من معـرفة تـاريخ القـرون الماضيـة والأمم الخاليـة وقصص الأنبياء ، وعلم أصـول الفقـه ، وقـواعـد المنـطق ، ومنـاهـج البحث . وعلم النـاسـخ والمنسـوخ ، وعلم الفقـه ، هـذا كله من الأهميـة بمكـان ، أضف إلى ذلـك معرفة تامة بعلوم البلاغة من معان وبيان وبديع .

كل هذه العلوم وغيرها مما يضيق عن ذكرها المقام ، ينبغي أن يحذقها كل من يريد أن يتعرض للقرآن بالتفسيـر والتأمـل ، حتى يأمن العثـار ويتجنب الزلل ، ومن يبتـغ لتفسير القـرآن غير هـذه الوسيلة فقـد يظلم نفسـه ، قبل أن يـظلم القراء ، ويتعـرض لعبث الناس قبـل أن يعرض كـلام الله لنـظرتـه التي تغشاها سحب الافتراء ، ولا أدري إن كان الـطبيب مصطفى محمـود قد أخـذ بهـذه العلوم كلها ، وألمّ بـأطرافهـا ، لست على يقين من ذلك ، إنمـا الـذي استطيع أن أجزم به أنـه حين يعرض لتفسيـر بعض الآيات عن طـريق اللغة أو

البلاغة ، يقول كلاماً فيه كثير من التسامح الذي يفتقر إلى تصويب .

ومن الدلائل التي تشير إلى أنه لا يسبر أغوار لغة القرآن أنـه حين يتناول قصة آدم وحواء وعلاقتهما بالشجرة المحرمة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها بقـوله ﴿فَكُـلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْـرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُـونَا مِنَ الـظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ١٩ ، يتحدث عن الشجرة باعتبارها رمـزاً جنسياً ، وخـطاب التحريم قبـل ارتكاب الخـطيئة كـان لمثنى ، ثم ترى الخـطاب القرآني بعـد تـذوقهمـا للشجـرة يتبدل إلى صيغـة الجمع ؛ لأن الأكـل من الشجرة أدى إلى التنـاسـل والتكاثر . وصل المؤلف إلى هذا التفسير من خلال اللغة ، فالله حين يخاطب آدم وحـواء خاطبهمـا أولاً بلفظ المثنى ، وعندمـا خاطبهمـا ثـانيـة بعـد تـذوق الشجرة خاطبهما بصيغة الجمـع فقال : ﴿ اهْبِـطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ البقرة آية ٣٦ .

ومن عنـده علم بلغة العـرب يعرف أن الخـطاب قد يكـون بلفظ الجمع ويـراد به المثنى كقـوله تعـالى : ﴿ إن تَتُـوبـا إلى الله فقـد صغتْ قلوبُكمـا ﴾ التحـريم آيـة ٤ وقـوله تعـالى : ﴿ كلّا فـاذهبا بـآياتنـا إنّا معكم مستمعـون ﴾ الشعـراء آية ١٠ وقـوله تعـالى : ﴿ ضرب الله مثـلاً عبداً مملوكـاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ﴾ النحل آية ٧٥ . وغير ذلك كثير في القرآن وفي لغة العرب ، ولو أدرك المؤلف أسرار العربية لما وقع في هذا التفسير الجائر .

وكذلك من الدلائل التي تشير إلى أنه لم يـدرس علوم البلاغـة ، فضلاً عن أنـه لم يدرك أغـوارها ، أنـه لا يكـاد يفـرق بين التعبيـر الحقيقي والتعبيـر المجازي في القرآن .

يصيب ويخطىء :

ففي مستهـل حديثـه عن البعث يـذكـر أن الله يخـاطب نبيّـه في القـرآن

فيقول : ﴿ إنك ميت وإنّهم ميّتون ﴾ الزمر آية ٣٠ ويعقب على ذلك بقوله : « لا يقول إنك ستموت ، فهو ذاته ميت . . . وفي كلمة : إنك ميت . . عنف يوقظ الإحساس ، إنها تضعك أمام واقع مفزع ، وأمام حالة من الحاضر لا حالة في المستقبل .

ومن ثم نرى أن مصطفى محمود يفسر الآية بألفاظها الحقيقية ، وليس بالمعنى المجازي الذي ينتشر في القرآن الكريم كله . انظر مثلاً إلى ما جاء على لسان ضيف إبراهيم في مخاطبتهم له : ﴿ قالوا لا تَوْجَلْ إنّا نبشّرك بغلام عليم ﴾ الحجر آية ٥٣ . أي بهذا سوف يصبح في المستقبل غلاماً عليماً ؛ لأن الانسان لا يولد غلاماً عليماً بالأمور ، وإنما يولد طفلاً لا يعلم شيئاً . وانظر كذلك حين يناجي نوح ربه ودعائه على قومه بقوله : ﴿ إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً ﴾ نوح آية ٢٧ . أي لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر في المستقبل ؛ لأن الطفل لا يولد فاجراً ولا كافراً ، ومثل هذا التعبير المجازي مذكور في مواضع جمّة من القرآن الكريم يضيق المجال عن سردها ، ونكتفي بذكر هذه الإشارات الطفيفة لبعض الأخطاء التي وقع فيها المفسر ؛ لنبين أن الدكتور مصطفى محمود لم يكن متمكناً من أدوات التعبير وعدة المفسّر ، حين أباح لنفسه أن يتناول القرآن بالتفسير والتحليل .

ورغم ذلك كله فإن مصطفى محمود كان مجتهداً في التفسير يصيب كما يخطىء ، ويسمو كما يهبط ، إلا أننا نلتمس له العذر حيث أراد أن يجلي للقراء بعض معاني القرآن وأبعاده، من وجهة النظر الشخصية التي تعطينا إحساساً بليغاً بمكنونات القرآن وإن لم يأمن فيها العثار والزلل .

ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على نشر هذا الكتاب بعد أن ظهر في صورة مقالات حتى كاد ينساه القراء ، إلا أن المؤلف حين جاء إلى دولة الإمارات هذا العام ١٩٨٠م بدعوة من وزارة الإعلام ليلقي بعض المحاضرات

لم يجد أنسب من أن يلقيها من خلال هذا الكتاب نفسه ، لكي يُلهب الجذوة التي خدمت في أذهان القراء واستحالت إلى رماد ، فألقى محاضرة في الإنسان أهو مخير أم مسيّر ؟ ومحاضرة في كلمة التوحيد ، ومحاضرة في الجنة والنار ، وكلها مما سبق لمصطفى محمود أن تناولها هذا الكتاب ، وألقت محاضراته كثيراً من الفزع والغضب في نفوس المسلمين . وخاصة بعض رجال الدين الذين اتهموه بالإلحاد وزيغ العقيدة ، ورموه بالزندقة والتجديف في خطب الجمعة ، ومن فوق المنابر واشتعلت من جديد تلك الجذوة التي خبت ، وأوشك أن يكون لها ضرام ، حتى صار لزاماً علينا أن نعرض للكتاب في خطوطه العريضة ، وطريقته في التناول والمعالجة ؛ لنبيّن للقارىء أن المؤلف ما زال متمسكاً بآرائه السابقة دون أن يدخل عليها شيئاً من التعديل أو التبديل .

المعمار القرآني :

والمؤلف يستهل كتابه : « القرآن محاولة لفهم عصري » بمقال تحت عنوان « المعمار القرآني » وهو عنوان لا يختلف عن العبارة المألوفة من قديم ، وأعني بها النظم القرآني ؛ ولكنه أراد أن يوحي إلينا بأنه تفسير عصري لا عهد له بالتفسيرات القديمة حتى في اختيار العنوان ، فالقرآن في نظره بناء هندسي متناسق في التركيب ، ليس شعراً ولا نثراً ولا سجعاً ، وإنما هو معمار خاص من الألفاظ ، صُفّت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها ، فكل عبارة في القرآن بنيان موسيقي قائم بذاته ، نابع من داخل الكلمات ، ومن ورائها ، ومن بينها بطريقة محيرة لا ندري كيف تتمّ .

وهذه الموسيقى ليست كموسيقى الشعر الظاهرة التي تصل إلى سمعك خارج العبارة : من الوزن والقافية فتطرب لها وتهتز نشوة .

والقرآن لم ينفرد بهذه الموسيقى الباطنية فقط ، وإنما ثمة صفة أخرى ، وهي : الجلال الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تفيض قلوبهم وجنوبهم إلى ذكر الله ، وإذا سمعه الرهبان فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق ، ونحن حين نقرأ القرآن لا نكون أمام معان فقط ، وإنما نكون أمام تكوين وبناء موسيقي ينبع من قلب الكلمات لا من حواشيها ، من خصائص اللغة ، وأسرارها ، وظلالها ، وقوافيها . فالقرآن معمار فريد ، نسيج وحده ، في الطريقة التي تصفّ بها الألفاظ في وصف خاص ، يفجّر ما بداخلها من نغم فتؤدي إلى خشوع المستمع ، وإدراكه الغامض للمصدر الجليل الذي انبثقت منه .

فاعجاز القرآن هو بالدرجة الاولى فيما يستثيره في القلب من احساس غامض ، لمجرد أن تصطف الحروف في السمع بهذا النمط الفريد . . . . ذلك العزف بلا آلات وبلا قواف ، ولا بحور ولا أوزان ، ذلك السبك والتلوين في العبارات هو بلا شبيه من قبل أو من بعد ، إنه الانضباط والإحكام ، فلا تتقدم كلمة على كلمة إلا بسبب ، ولا تتأخر كلمة عن كلمة إلا بسبب ، فإذا وقفت أمام كلمة قرآنية وحاولت أن تنقلها من مكانها أو تستبدلها ، أدركت أنك أمام طراز من الضروريات اللغوية والعلمية تثير الذهول ، وأنك أمام لون من ألوان الصدق المطلق ، وبهذه اللمسات والظلال التي لها جرس وصوت وصورة ، كان القرآن كتاباً لا يُترجم .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ، فالسبب هو التعود والاغراق في علمية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذلك الأسلوب الممل الترتيب الذي نسمعه من المرتلين المحترفين الذين يرتلون القرآن بنبرة واحدة ، لا يختلف فيها موقف الحزن عن موقف الفرح ، ولا موقف الوعيد عن موقف البُشرى أو

العبرة ، نبرة واحدة تموت فيها المعاني ، وتتسطح العبارات ، فالمرتل إنما يقرأ على سبيل اللّعلَعَة والإعجاب بصوته دون أن ينبض شيء في قلبه ، ورغم ذلك كله فإن لحظة صفاء تعود فيها النفس إلى شفافيتها ، كفيلة بأن يقف الإنسان مذهولاً من جديد أمام آيات القرآن التي نزلت منذ خمسة عشر قرناً ، وكأنها نزلت في التّو واللحظة . انتهى .

والمعمار القرآني كما يسميه المؤلف - أو النظم القرآني - كان شائعاً منذ القرن الثاني الهجري ، ومتداولاً بين العلماء ، سواء في تعرضهم للنثر أو الشعر ، تحدث عنه سيبويه والجاحظ وابن قتية والمبرد والرماني والعسكري والباقلاني وغيرهم حتى تبلْوَرَ في نظرية تسمى نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني ، فالنظم عنده مجموعة من العلاقات بين الكلمات ، وارتباط بعضها ببعض في تماسك شديد ، بحيث تفتقر كل كلمة إلى ما بعدها في انسجام وتناسق « بأن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يكون حالُك في الجملة حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين »[1] فالنظم الجيد أو المعمار المتناسق لا يظهر إلا في اتحاد أجزاء الكلام ، ودخول بعضها في بعض ، وارتباط الثاني بالأول ، كما يتضح في الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة ، وبين الجملة والجملة في مجموعة من العلاقات المنظمة المتناسقة بين أطراف الكلام . ومصطفى محمود في حديثه عن المعمار القرآني لم يخرج عن هذا التصور ولم يفلت من هذه الرؤية .

الاختيار والجبر :

الله تعالى عرض علينا الأمانة : وهي الحرية والمسؤولية ،عرضها لنقبلها

---

(1) دلائل الاعجاز ٧٤٢٧٣ عبد القاهر الجرجاني - ط ٥ .

أو نرفضها كما نشاء ، فحملها الإنسان وكان ظالماً لنفسه .

وبهـذه الحريـة التي قبلهـا الانســان مختـاراً ، حقّت عليــه المسؤوليـة والمحاسبة ، وبمقتضى هذه الحرية جعل الله من ضمير الانسان ونيته منطقة محرمة لا يدخلها قهراً أو جبراً ، وإنما يبدأ التدخل الآلهي لحظة خروج النية إلى حيز الفعل ؛ لأن الفعل يعبر عن دخيلة فاعله ، ولذلك كانت تيسيرات الله لأفعال العباد مطابقة لدخائل قلوبهم ، فيجد الشرير تيسيرات الشر ، ويجد الخيّر تيسيرات الخير ، ومن يعلم الله فيه الهدى يهديه ، ومن يعلم فيه الضلال يتركه للشياطين ، تضله وتهوى به إلى مكان سحيق فما يدور في القلب ـ إذن ـ هو موضوع المحاسبة ، وليس ما يجري على مسرح الفعل ، ﴿ وليس عليكم جُنَاحٌ فيما أخطأتُم به ولكن ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الأحزاب آية ٥ . فالسريرة هي محل المحاسبة .

والله سبحانه يترك لنا المبادرة بالنية دائماً ، ثم بعد ذلك يأتي قضاؤه ، فإذا اتجهت نيتنا نحو الايمان والهدى ، زادنا الله إيماناً وهداية ، وإذا اتجهنا نحو الضلال والشر ، يسر الله لنا سبل الغواية والشر ، وصرفنا عن الحق والهدى .

فالله لا يفرض علينا النية السيئة : ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ الأعراف آية ٢٨ . والشيطان لا يستطيع أن يلج قلوبنا إلا إذا فتحنا له الباب اختياراً ، وكنا من الغاوين ، ولكنه لا يقتحم قلوبنا جبراً وقسراً ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾الحجر آية ٤٢ .

الجنة والنار :

يحكي لنا مصطفى محمود في صورة طريفة سر انصرافه عن القرآن في شبابه ؛ بل انصرافه عن الدين كله : أنه قرأ عن أنهار العسل وأنهار الخمر في

الجنة ، وهو لا يحب الخمر ، ومن ثم فهو لا يعتقد في الجنة ولا يؤمن بوجودها .

أما عدم إيمانه بالنار فيرجع إلى أن العذاب يتنافى مع رحمة الله ، والله لا يعذب إنساناً مسكيناً لا يساوي ذرة في مملكته اللانهائية .

وعندما يسترجع رأيه في الجنة والنار بعد أن يتقدم به الزمن وينضج فكرياً ، يشعر بأنه كان في عجلة من أمره ، فضاعت من أمامه معالم الحقيقة ، وفاتته أمور شديدة الوضوح ، فيتجه اتجاهاً فلسفياً يحدو به إلى تفنيد رأيه السابق ، فهو يؤمن بالجنة كما يرسمها القرآن على أنها شيء معنوي أراد الله أن يقر به لنا عن طريق ضرب الأمثال ؛ لأن الجنة من الأمور الغيبية التي لا يمكن تصويرها في كلمات : فالبدوي يتحرق شوقاً إلى نبع ماء صافٍ ؛ لأنه يعيش في صحراء مقفرة ليس فيها إلا ماء آسن مالح ، ولبن يتغير طعمه في حر الصحارى ، فكان الماء الصافي العذب ، واللبن الذي لم يتغير طعمه من أمنيات البدوي التي لا أمنية بعدها ،وتحقيقها هي الجنة التي يعده الله بها ، فضرب القرآن له المثل من أعز ما يتمنى ، مجردَ مثلٍ ليس من ورائه غاية إلا تقريب المعاني البعيدة بقدر الامكان ، وهكذا كل ما جاء في القرآن عن الجنة ما هو إلا لون من ضرب المثال ، ولون من التقريب .

أما ألوان العذاب الحسية التي يسردها القرآن في سور متعددة ، فلا حقيقة لها بحال من الأحوال ، وإنما هي عذاب نفسي يجول في داخل النفس الانسانية والضمير البشري ، فمن عاش في الدنيا لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر الحق ، فسوف يحشره الله أعمى ، ومن عاش حيواناً لا همّ له إلا شهوة البطن والفرج ، فسوف يهبط إلى رتبة الحيوان الأعجم في الآخرة ، ثم يوضح لنا المؤلف الصورة أبعد من ذلك حين ينكر العذاب الأخروي الحسي ، وأن العذاب هو مجرد شعور بالغيرة والحسد والهوان والخسران ، وسوف يحرق

هـذا الاحساس الصـدور كما تحـرقها النـار ، وسيكون هـذا الشعور بـالهـوان والخسران حسرة على صاحبها حينما يرى مكانته ومكانة الآخرين ، ومقدار مـا كسبوا ومقدار ما خسر .

فـالنار في الآخـرة هي غير مـا نعرف من النـار ، أما الجنـة فهي مسألـة مقامات ، وكل واحد يبعث على رتبته ومقامه .

ومـا ذكره المؤلف من انحصـار العذاب في الآخـرة بالعـذاب النفسي ، ليس في الحقيقـة إلا جزء من عـذاب الآخرة ولا مـوضع لإنكـار هذا العـذاب الحسي الذي ذكره القرآن في كثير من الآيات ، فالنار كما وصفها القرآن تفـور ولهـا شهيق ، والحجارة والنـاس وقود للنيـران ، وقد قـطّعت ثيابهم من نـار ، والمـاء يشوي الـوجـوه ، والجحيم يصب من فـوق الـرؤوس ، والمقـامـع من حديد ، وعلى أبواب النار حراس من الملائكـة الغلاظ الشـداد ، وكلها صـور من العذاب الحسي لا وجه لإنكارها .

وإذا كان القرآن قد خاطب الكافرين بألوان من العـذاب الحسي لتقريبـه إليهم كما يقول المؤلف ، فالقرآن قد خاطبهم أيضاً بألوان من العذاب النفسي والمعنوي دون أن يلجأ إلى تقـريبه إليهم بصـور حسية ، ممـا يجعلنا نـرى أن المؤلف قد تعسف في تفسيره وتأويله ، ثم أن العرب الذين يتصفون بالبلاغـة ألا يدركون التعبير المعنوي المجرد كما يدركون الحسي المجسد ،لا شك أنهم كـانوا يـدركون هـذا وذاك . وأشعـارهم تنبىء عن هـذا وذاك ، فـالجمـع بين العذاب النفسي والعذاب الحسي قد صوره الله للكافرين في القـرآن ؛ لأنه أراد لهم كلا النوعين .

الجن والشياطين والسحر :

ويفرد المؤلف فصلاً يتحـدث فيه عن الغيب ، والغيب هـو أعمق ما في

القرآن ، ولذلك كانت قراءة القرآن جهاراً ، ومن يقرأ القرآن بخفة ، ثم يرفض ما فيه ، يظلم نفسه ولا يظلم القرآن .

ومن خلال هذا الفصل يحدثنا عن الجن والشياطين :

فالقرآن قد تعرض لذكر الجن تفصيلاً فمنهم الصالحون الأخيار ، ومنهم الكفرة الأشرار ، وفيهم ذكور وإناث يتناسلون ، وأنهم يستمعون إلى ما يدور في عالم الإنس وَيُوَسْوِسُون لهم ، ومنهم المردَة الذين يتطاولون فيتسمعون إلى ما يجري في الملأ ؛ أملاً في معرفة الغيب ، فيقذفون بالشهب ويحرقون ، ومنهم من يمس الإنسان فيصيبه بالضرر ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بمشيئة الله .

ومحاولة استرضاء الجن بتقديم الذبائح والقرابين ، لاستجلاب الشفاء جهل وشرك ؛ لأن الشفاء لا يمكن أن يتم إلا بمشيئة الله .

كذلك تحضير الجن وتسخيرهم للمنافع ، أمر يعود في النهاية بالضرر وليس بالنفع على أصحابه .

والجن لا يعرف الغيب ، ويحاول التسمع دون جدوى ؛ لأنهم عن السمع لمعزولون ، وهم يموتون ويبعثون ويحاسبون كأبناء آدم .

والشياطين من فصيلة الجن ، ولكنهم أمهلوا فلا يموتون إلا إذا قامت الساعة ، فيكون موتهم ثم بعثهم ؛ ليخلدوا بعد ذلك في الجحيم .

والشياطين هم الذين علّموا الناس السحر لإلحاق الضرر بالناس، وإن كان أثره لا يتم إلا بمشيئة الله .

والقرآن يدفع السحر والسحرة فلا يفلح الساحرون ، وفي الوقت نفسه يحدثنا عن كيفية نزوله وتاريخه ومكانه فقال :

﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكَين ببابل هَاروت ومَارُوت ، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحنُ فِتنةٌ فلا تكفر ، فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بينْ المرءِ وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ البقرة آية ١٠٢ .

فأساليب السحر ظهرت في الأرض لأول مرة في بابل ، جاء بها هَارُوت ومارُوت ، وهما رجلان كانا يتظاهران بالصلاح ؛ خِداعاً للسذج ، فكانا فتنة للناس وابتلاء لهم ، ذكر ذلك علماء التفسير ، وليسا ملكين جاءا إلى الأرض في صورة بشر كما يرى المؤلف ، فإن الله يرسل رسله للهداية وليس للتضليل .

الساعة :

الساعة من الأمور الغيبية ، والله وحده الذي عنده علم الساعة ، والاجتهاد وإن كان مباحاً في أمور الدنيا ، إلا أن القطع في الأمور الغيبية من أكبر الأخطاء التي يتورط فيها قارىء القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقدور البشر .

والساعة ستأتي حتماً ـ كما يروي لنا القرآن ـ حينما يصل الإنسان إلى غاية التقدم ، وتبلغ الأرض ذروة الحضارة ، فتأخذ زينتها وزخرفها ، ويظن الإنسان أنه قادر على كل شيء ، متحكم في كل شيء : متحكم في الأمطار ، وزرع الصحراء ، وعلاج الأمراض ، ونقل القلوب والعيون من جثث الأموات إلى أبدان الأحياء ، متحكم في السفر بين الكواكب ، وتفجير الذرة ، ونقل الجبال .

والله تعالى يقول متوعداً منذراً : ﴿ حتّى إذَا أخذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازّيّنتْ وظَنّ أهلُها أنّهُمْ قادِرُونَ عَليْها أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعَلْناها حَصِيداً

كأنْ لمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ يونس آية **٢٤** .

فالساعة تأتي ليلاً أو نهاراً ، تأتي كلمح البصر ، تأتي في صورة رهيبة تتجمد لها الدماء في العروق : شمس تُخسف، وقمر يُكسف، وجبال تنسف ، ونجوم تنكدر ، وبحار تتفجر ، وأرض تتزلزل ، وكل من على الأرض والسماء يصعق ؛ إلا من شاء الله أن يحفظه ؛ ليشهد هذا اليوم . فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية ، يُبعث الكلّ ويبدأ الحساب ؛ فكل ما يحدث في هذا اليوم من دمار تام ، وفناء كامل للصور المادية بأسرها ، إنما هو من قبيل التسليم والإذعان الذي لا يحتاج إلى تأييد أو تفسير بنظريات علمية تربط الأسباب بمسبباتها ، كاصطدام المادة بالمادة المضادة ، واصطدام القمر بالأرض أو الشمس ، أو تقلص الكون واحتراقه ، أو تمدده في الفضاء ، أو غير ذلك مما لا مبرر له ، فالإنسان يموت ويفنى بإرادة الله ، وما يجري على الإنسان يجري على الأجناس والحضارات والأفلاك ، ولا حاجة إلى كدح الذهن في أسباب للنهاية والتناهي .

التوكل والتواكل :

لا إله إلاّ اللّه ، والفاعل هو اللّه ، فلا ينبغي أن نفرح بثراء أو نحزن لفقر ، أو نتردّدَ أمام تضحية ، أو نجزعَ إزاء مصيبة ، ومن يؤمن بأن مقاليد الأمور كلها بيد الله فهو المتوكل .

فالله هو الذي خلق النافع والضار : خلق العقرب ، وأنبت الورد ، وهو الذي ينشر السم في العروق ، كما ينشر الطيب من الزهور ، هو مناط الهلاك ومناط النجاة ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته .

والتوكّل يقتضي شدة العزم ، وجمع الهمّة ، وبذل قصارى الجهد ، مع

إسلام الأمر في النهاية إلى مشيئة الله ، فيكون نجاح المسعى أو فشل المقصد أمراً مقدّراً .

والمتوكل ، هـو الذي يمتلىء قلبـه ثقة وهـو يعمل ويجـاهد ، ويمتلىء صدره سكينة وأمنـاً بعدل الله ، وأن كـل أحد يصيب مـا يستحقه من نجـاح أو إخفـاق ، فـلا يغتـر بنجـاح ، ولا يحـزن على فشـل . فـإذا اعتـراه شيء من الانزعاج أو الانهيار ، كان ذلك دليلاً على رقّة إيمانه وعدم ثقته في الله .

المتوكل هو من يحمل التكليف ، وينهض بالعبء ، ويبذل غاية الجهـد وقـد فـوض أمـره لله في كل لحـظة ، ولا يهمه ولا يقلقـه أن ينجح المسعى أو يفشـل ، فهو لن يصيب إلا مـا يستحق ؛ لأن الله هـو الحكم العـدل الـذي لا يظلم أحداً ، فإذا أصاب المرء نجـاحـاً ، قال في تـواضع : مـا أصبت هذا إلا بفضل الله ، وما كان عملي إلا سبباً ضِمن ما هيأ الله من أسباب ، وإذا أصاب فشـلاً ، لم يتحسر ولم ينـدم ، بل قـال في ثقة : لقـد هيأ الله إلى الصـالـح ، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة آية ٢١٦ .

أما المتـواكـل ، فهو إنسان متقاعد ، كسول ، فاتر العـزم ، ضعيف الهمة لا يحـرك ساكنـاً ، ويريـد من الله أن ينجز كـل شيء ، وهو إنسـان لا يثق في نفسه ، ولا يؤمن بالأسباب التي تؤدي إلى النتائج ، ولا بالعزيمة التي هي من الأسباب الضرورية لإنجاز أي عمل من الأعمال .

ومثـل المتواكـل كمثـل المسـافـر الـذي يفكـر في السفـر دون أن يهيىء أسبابه ، فلا يسارع إلى حجز تذكرة ، ولا يبادر إلى حزم حقيبة ، ويبقى حيث هو في فراشه ينتظر من السماء أن تحمله حيث يشاء ، فـإذا لم تتحقق رغبته ، قـال : إنها إرادة الله ، وأنـه يقبلهـا لأنـه مؤمن ، وهـذا ليس من الإيمـان في شيء ، فـالمؤمن بالله لا بـد أن يؤمن بنظامـه الذي أقـامه في الـدنيـا ، وربط الأسبـاب بالمسببـات ، ويؤمن بأن العـزم والعمل أمـر ضروري ، وسبب لازم لإنجاز كل مهمّة .

وَضْعُ المفرد موضع المثنى

وذلك كقوله تعالى : ﴿ عَنِ اليَمين وَعَنِ الشِمالِ قَعِيدٌ ﴾[1]

أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فهما قعيدان لا قعيد واحد .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَّنةِ فَتَشْقى ﴾[2]

والمراد فتشقيان ، فوضع المفرد موضع المثنى .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُه أَحَقُّ أَنْ يُرضُوه ﴾[3] .

والمعنى أن يرضوهما .

ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

إنَّ شـرخَ الشبـابِ والشعـرِ الأسـ ... ـودِ مـا لمْ يُعَـاصِ كـانَ جُنـونـاً

قال ابن الشجري « قـال : ما يعـاص ، فأراد الضميـر وإن كان لاثنين ، وحقّ الكلام أن يقال : يعاصيا ، ثم ذكر العلة البلاغية في وضع المفرد موضع المثنى بقـوله : « ذلـك لأن كل واحـد منهما بمنـزلة الآخـر ، فجـرى مجـرى

---

(١) سورة قٓ الآية : ١٧ .

(٢) سورة طه الآية : ١١٧ .

(٣) سورة التوبة الآية : ٦٢ .

الواحد ، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ولأنهما مصطحبان صارا بمنزلة المفرد »[1] .

ومثل ذلك قول الأعشى :

فَرَجِّي الخيْرَ وانتَظِري إيـاي   إذا مَـا القـارظ العَنَـزَيُّ آبـا

وإنما هما قـارظان ، فـالمثل (حتى يئـوب القارظـان)[2] فعبَر بـالمفرد وأراد المثنى ، وإنما قال ذلك لعله بلاغية « وهي أنهما صارا كالشيئين لا يغني أحدهما عن الآخر ، فلذلك عبّر عنهما بصيغة المفرد »[3] .

قـال الرضي في شـرح الكافيـة « وقـد يقـع المفـرد مـوقـع المثنى فيمـا يصـطحبان ولا يفتـرقان ، كـالرجلين ، والعينين ، تقـول : عيني لا تنام أي : عيناي »[4] .

فـالعلّة البلاغيـة إذاً في وضع المفـرد مـوضـع المثنى ، هـي أن الإثنين متلازمان متصاحبان ، يتصـل أحدهمـا بالآخـر أشد الاتصـال ، ويرتبط بـه كل الإرتباط ، فصارا كأنهما شيء واحد ، لا شيئين مختلفين ، فحق عندئذٍ أن يعبّر عنهما بلفظ المفرد ، وليس بلفظ المثنى .

وضع المفرد موضع الجمع

مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾[5].

أي : أطفالاً .

---

(١) انظر هامش تأويل مشكل القرآن ٢٢٢ .

(٢)من أمثالهم (لا يكون ذلك حتى يئوب القارظان) وهما رجلان أحدهما من عنزة والآخر عامر بن غنيم خرجا يجتنبان القرظ فلم يرجعا فضرب بهما المثل . انظر اللسان مادة قرظ .

(٣) عقود الجمان : السيوطي ١/١١٤ .

(٤) شرح الكافية : الرضي ٢/١٧٧ .

(٥) سورة الحج : الآية : ٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1] .

أي : ظهراء .

وقوله تعالى : ﴿ وحسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾[2] .

أي رفقاء .

وقــولــه تعــالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّمــواتِ لاَ تُغْني شَفَــاعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾[3] .

أي : ملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلاّ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾[4] .

أي : أعداء .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[5] .

أي أعداء .

وقوله تعالى : ﴿ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحون ﴾[6] .

أي : ضيوفي .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾[7] .

أي : أضداداً .

يقـول أبـو عبيـدة « والعـرب تلفظ بلفظ الـواحـد ، والمعنى يقــع على الجميع »[8] وضرب لذلك أمثلة من الشعر منها :

---

(١) سورة التحريم الآية : ٤ .
(٢) سورة النساء الآية : ٦٩ .
(٣) سورة النجم الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الشعراء الآية : ٧٧ .
(٥) سورة الكهف الآية : ٥٠ .
(٦) سورة الحجر الآية : ٦٨ .
(٧) سورة مريم الآية : ٨٢ .
(٨) مجاز القرآن : ١/١٣١ ، ٢/٤٤، ١٩٥ .

قول العباس بن مرداس :

فقلْنـا اسلمـوا إنّـا أخـوكم فقـد بـرئت مـن الإحَنِ الـصـدُورُ

ويقول الشاعر :

يـا عـاذلاتي لا تَـزِدْنَ مَـلاَمَتِي إن الـعَـواذِل لـسْنَ لـي بـأمـيـر

أراد : أمراء .

وقوله :

كُـلُوا فِي بَـعْضِ بَـطْنِكُـمْ تَـعفّـوا فـإن زمَـانَـكُـمْ زَمَـنٌ خَـمـيص

يريد بطُونكم .

والعلة البلاغية في وضع المفرد موضع الجمع ، هي أن المتكلم جعل الجمع كنفس واحدة : لشدة تماسكها واتصالها ، وليست ذوات متعددة ، تنفصل إحداها عن الأخرى ، فيحدث بينها التمايز والإفتراق ، بل جعلهم كذات واحدة في الاجتماع والترافد ، كقوله عليه السلام : « المؤمنون كنفس واحدة »[1].

ويذكر سيبويه علة بلاغية أخرى لهذا العدول « ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ﴾[2].

ومثله . وقررنا به عيناً ، وإن شئت قلت : أعينا وأنفساً ، ولكنك قصدت التخفيف والاختصار »[3].

وابن جني يرى أحياناً أن العلة البلاغية في وضع المفرد موضع الجمع إرادة التحقير والتصغير كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ يقول « فحسن لفظ الواحد هنا ؛ لأنه موضع تصغير بشأن الإنسان ، وتحقير لأمره فلاق به ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة ، وهذا إذا سئل الناس عنه

(١) شرح الكافية : ١٧٧/٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ٤ .

(٣) الكتاب : ١٠٤/١ .

قالوا : وضع الواحد موضع الجمع اتساعاً في اللغة وأنسوا حفظ المعنى ومقابلة اللفظ به لتقوى دلالته عليه وتنضم بالشبه إليه »[1] .

وضع المثنى موضع المفرد

كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[2] .

واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء الملح لا من العذب . وأصل الكلام : يخرج منه اللؤلؤ والمرجان .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾[3] .

قال الفراء : « يخاطب الإنسان مخاطبه بالتثنية »[4] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيد ﴾[5] .

وهو خطاب لمالك خازن النار . وعبر عنه بالمثنى .

وقوله تعالى : ﴿ كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ﴾[6] .

وهي جنة واحدة بدليل قوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾[7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْن عظِيمٌ ﴾[8] .

الوليد بن المغيرة في مكة وحبيب الثقفي في الطائف .

أي : مكة والطائف جميعاً ، والمعنى على واحدة منهما .

ومن ذلك ما ألِفَ الشعراء قوله في مخاطبة الصديق والرفيق بصيغة

---

(١) المحتسب : ٢/٢٦٦ .
(٢) سورة الرحمن الآية : ٢٢ .
(٣) سورة الرحمن الآية : ١٣ .
(٤) البرهان : ٣/٥ .
(٥) سورة قَ الآية : ٢٤ .
(٦) سورة الكهف الآية : ٣٣ .
(٧) سورة الكهف الآية : ٣٥ .
(٨) سورة الزخرف الآية : ٣١ .

المثنى كقول امرىء القيس :

قفــا نبــكِ من ذكــر حبيبٍ ومَنْــزِلِ   بسقْطِ اللِّوى بينَ الـدخول وحَـوْمَـلِ

والخطاب لواحد .

يقول الفراء في سبب الخطاب بصيغة المثنى عند الشعراء .

« وترى أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلاً يا صاحبيّ ، ويا خليليّ [1].

ويؤكد الرضي وجهة نظر الفراء في تعليل سبب عدول الشعراء في التعبير عن المفرد بصيغة المثنى فيقول : « لأن أكثر الرفقاء ثلاثة ، فكل واحد منهم يخاطب صاحبيه في الأغلب ، فيخاطب الواحد أيضاً مخاطبة الاثنين لتمرن ألسنتهم عليه »[2].

هذا بالنظر إلى قول الشعراء ، أما بالإضافة إلى غيرهم كالآيات التي وردت في القرآن الكريم ، وعبّر فيها بلفظ المثنى ، فالبلاغيون يلتمسون لها علة أخرى ، وهي إرادة التوكيد ، فيكون ذلك ، إما بمنزلة تقسيم الشيء الواحد إلى شيئين ثم الحديث عنهما ، وفي ذلك من التأكيد ما لا تجده إذا عبّرنا عنه بلفظ المفرد . وإما يكون بمثابة تكرار الفعل ، ثم امتزاج الفعلين ، وصار حضور أحدهما حضوراً للآخر ، فقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كفّارٍ عَنيد ﴾[3] بمثابة تكرار الفعل ، وكأنه قال : « ألق ألق »[4] فكأن تثنية الفاعل تقوم مقام تكرار الفعل « وبمثل ذلك فسر قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهمْ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾[5].

---

(1) الصاحبي : ابن فارس ١٨٦ .
(2) شرح الكافية : ٢/١٧٧ .
(3) سورة قَ الآية : ٢٤ .
(4) عقود الجمان : ١/١١٥ سورة قَ آية : ٢٤ .
(5) سورة المؤمنون الآية : ٩٩ .

أي : ارجعني ، ارجعني ، ارجعني ، والتكـرار يعـطي المعنى قـوة وتأكيداً ، ويزيده فضلاً وتأثيراً .

وهذا هو السر البلاغي في العدول عن التعبير بالمفرد إلى المثنى .

وضع المثنى موضع الجمع

وقـد ذكره ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) ووقف على سـره البلاغي ،واستعـان في ذكـره بما نقله عن الخليـل . وهذا اللون لم نَـرَ لـه مثـالاً من القـرآن عنـد الخليل أو سيبويـه أو أبي عبيدة أو الفـراء ، رغم أن القرآن الكـريم ذكر بعض هذه الاستعمالات .

كقوله تعالى : ﴿ الطَّلاق مَرَّتَانِ ﴾[(١)] .

وهو لا يقع إلا بثلاث .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتين ﴾[(٢)] .

أي : كـرّات ؛ لأن البصر لا يحسـر إلا بالجمـع . وعلى الـرغم من أن هذا اللون من الأساليب العربية كـان معروفـاً منذ الخليـل إلا أن أحداً لم يقف على سره البلاغي قبل ابن جني ـ على قدر ما وصل إلينا من المصادر ـ فالمراد بوضع المثنى موضع الجمع أن يتكرر الشيء مرة بعد مرة، وفي ذلك من التأكيد مـا لا نجده في التعبير بالجمـع دفعـة واحـدة . ويبيّن ابن جنّي هـذا المغـزى مستعينـاً في ذلـك بتفسيـر الخليـل فيقـول في قـولـه تعـالى ﴿ فَـأَصْلِحُـوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٢٩ .
(٢) سورة الملك الآية : ٤ .
(٣)سورة الحجرات الآية : ١٠ .

لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة ، أي أن كل اثنين فصاعداً من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . ألا ترى أن هذا حكم عام في الجماعة وليس يختص به منهم إثنان مقصودان ؟ ففيه ـ إذاً ـ شيئان : أحدهما لفظ التثنية يُراد به الجماعة ، والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس، وكلاهما قد جاء منه قولهم لبّيك وسعْدَيْك ، فليس المراد هنا إجابتين اثنتين ، ولا إسعادين اثنين ، بل « معناه كلما كنت في أمر فدعوتني له أجبتك إليه، وساعدتك عليه » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[1] .

« ونعم الله أكثر من أن تحصى »[2] فوضع المثنى موضع الجمع قد التفت إلى سره البلاغي ابن جنّي ، وإن كان قد استعان في تفسيره لبيان هذا السر بما ذكره الخليل بن أحمد .

وضع الجمع موضع المفرد

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾[3] .

وإنما أراد المسجد الحرام .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وملئهم أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾[4]. أراد وملئه .

وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾[5] والمراد جبريل .

(١) سورة المائدة الآية : ٦٤ .
(٢) المحتسب : ٢٧٨/٢ ، ٢٧٩ .
(٣) سورة التوبة الآية : ١٧ .
(٤) سورة يونس الآية : ٨٣ .
(٥) سورة النحل الآية : ٢ .

وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُمْ اللَّهُ مِنْ فضلِهِ ﴾[1] والمراد محمد عليه السلام .

ومثله : ﴿ الَّـذين قَـالَ لَهُمُ الناسُ﴾[2] والمـراد بهم نعيم بن مسعـود الثقفي .

« وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الواحد ؛ لأنـه إذا قـال الواحـد قولاً وله أتباع يقولون مثل قوله ، حسن إضافة ذلك الفعـل إلى الكل[3] . وقـولهم : (شابت مفارقه) وليس له إلا مفرق واحد .

وواضح من الأمثلة التي ذكرناها في التعبير بصيغة الجمع ، في الموضع الـذي كـان ينبغي أن نعبّـر عنـه بلفظ المفـرد ، أن سبب العـدول ، وسـره البلاغي ، إرادة التعظيم ، والتقدير لهذا الشيء ، فالمسجـد الحرام هـو أعظم مساجد الله منزلة ، وأعلاها قدراً ، فعبّر عن هـذا الشيء المعنوي الـذي يتّسم بالعظمة والروعة ، بالجمع العددي ، وكأن المسجد الحرام مساجـد متعددة ، وليس مسجداً واحداً ؛ لقيمة شأنه ورفعة مكانته .

وكـذلك الأمـر بالنسبـة لفـرعـون ، فله مـا لـه من السلطان ، والجـاه ، والعظمة بين قومه وعشيرته وأتباعه ، ومن كان هذا شأنه ، فهو يعدل مجمـوعة من النـاس ، وليس فرداً واحـداً ، فـالتعبيـر عنـه بـالجمـع يتنـاسب مـع هـذه المكانة ، ولذلك قال تعالى :

﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَونَ ومَلَئِهِمْ ﴾[4] ولم يقل وملئه .

---

(١) سورة النساء الآية : ٥٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٣ .
(٣) البرهان : ٣/٨.
(٤) سورة يونس الآية : ٨٣.

وجبريل ذلك الروح الأمين الذي اضطلع بمهمة إنزال القرآن على محمد عليه السلام وفيه الهداية والبشارة للمؤمنين ، وفيه التصديق لما جاء في الكتب السماوية ، لابد أن تكون منزلته عظيمة ، وشأنه كبيراً ، بين غيره من الملائكة ، وهو بهذا المعنى يعدل مجموعة من الملائكة دون الملك . وقِسْ على هذا بقية الآيات والأمثلة .

وضع الجمع موضع المثنى

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْـدِيَهُما ﴾[1] ، أي يديهما .

وقوله : ﴿ إنْ تَتُوبَا إلَى الله فقد صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[2] أي قلباكما .

وقوله : ﴿ أولئك مبرءون مِمَّا يَقُولُون ﴾[3] والمراد اثنان عائشة وصفوان .

وقوله : ﴿ كلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنا إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُون ﴾[4] أي معكما .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَى الألْواحَ ﴾[5].

يقول المفسرون : كان معه لوحان .

وقوله : ﴿ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْـداً مَمْلوكاً لاَ يَقْـدِرُ على شيءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِراً وجهراً هَلْ يستوون ﴾[6] .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣٨.
(٢) سورة التحريم الآية : ٤ .
(٣)سورة النور الآية ٢٦ .
(٤) سورة الشعراء الآية ١٥ .
(٥) سورة الأعراف الآية : ١٥٠-
(٦) سورة النحل الآية: ٧٥.

فإذا أردنا أن نبحث عن العلّة البلاغية في هذا التعبير رأينا في كتاب « إعراب القرآن » المنسوب للزجّاج : أن التعبير بالجمع أفصح من التعبير بالمثنى ، فقولك « ضربت رؤوس الزيدين ، وقطعت أيديهما وأرجلهما أفصح عندهم من « رأسيهما » كرهوا أن يجمعوا بين إثنين في كلمة واحدة ، فصرفوا الأول إلى لفظ الجمع ، ولا بأس من ذلك ، فالتثنية جمع في المعنى »[1] .

وتوضيح كلامه : أن المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة، هكذا يقول النحاة . فإذا كان المضاف مثنى ، والمضاف إليه ـ وهو الضمير ـ مثنى ، لزم أن يجتمع في كلمة واحدة ـ وهي المضاف والمضاف إليه ـ مثنيان : مثل يديهما ، وقلبيهما ، وفي ذلك من الثقل والبعد عن الفصاحة ما لا يخفى .

وقد كان من الممكن أن نسلّم بهذه العلة البلاغية لو أنها مطّردة ، في جميع الأمثلة التي بين أيدينا ، ولكنها غير مطّردة فيما يبدو ؛ إذ إن بعض الأمثلة لم يجمع فيها بين الإثنين ، وإنما اقتصر فيها بما يدل على المثنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولَئِكَ مُبَرَّءُون﴾ وقوله : ﴿ فَاذْهَبَا بِآياتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُون ﴾ .

وبذلك لا نستطيع الأخذ بهذه العلّة في التعبير عن المثنى بلفظ الجمع .

إذاً ما هو السر البلاغي في هذا العدول ؟ هل هو الرغبة في تنويع الكلام ، وعدم السير على منوال واحد ؛ تبديداً للسآمة ، وتنشيطاً للنفس ؟ ربما كان الأمر كذلك فيلتقي مع الالتفات في علّة بلاغية واحدة ، ولكن الأمر المحقق ، « أن بلاغة هذا التعبير إنما ترجع إلى قصد المبالغة بجعل كل

---

(١) إعراب القرآن : ٣/٧٨٧ .

واحـد من الشيئين عـدة أشيـاء ، أو قصـدت المبـالغـة في واحـــد من الاثنين المذكورين فجعلته لكبر شأنه ، وجلالة قدره ، كأنه أشياء »[1] فتسـوّغ لنفسك جمع المثنى ، وبذلك نعود لنفس العلة البلاغية التي ذكرناها في وضع الجمع موضع المفرد ، وهي المبالغة في التعظيم والتقدير .

---

(١) عقود الجمان : ١/١١٥ .

الباب الثالث

تفسير وتحليل سورة الحجرات

سورة الحجرات

هذه السورة الكريمة مدنيّة ، وهي على ما فيها من إيجاز ، سورة جليلة عظيمة تتضمن كثيراً من حقائق التربية الأخلاقية ، وبناء المدنيّة المتحضرة على أساس أخلاقيّ إسلاميّ ، حتى سماها بعض المفسرين بسورة الأخلاق .

ومن أبرز التعاليم الأخلاقية في هذه السورة الكريمة ، هي أمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات والأخذ بها ، والتثبت من الأنباء والأخبار خاصة إذا كان مصدرها شخص متهم في خلقه أو في دينه ، فربّ كلمة ينقلها فاسق يترتب عليها وبال شديد ، ونكال عظيم ، وكارثة مؤكدة ، تُحدث من الشقاق والبلبلة الشيء الكثير .

كما تحذر السورة من السخرية والهمز واللمز والغيبة وتناول الناس بما يكرهون ، سواء كان في حضورهم أو في غيبتهم ، فكلاهما ينهي عنه الإسلام ، ويأمرنا بأن نتجنبه حتى نتسم بالخلق الكريم ، والفضيلة الاجتماعية ، والمنزلية العظيمة عند الله وبين الناس .

وقد صور القرآن الغيبة بأبشع صوره حتى إذا قرأها الإنسان أو تخيلها ،

دبّ في نفسه الشعور بالتقزّز والكراهة والنفور ، فكيف يمكن لنفس بشرية تجلس بجوار أخ لها ميت تنهش لحمه وتشرب من دمه ، وقد كان التعبير القرآني مبدعاً غاية الإبداع حين صوره المغتاب بهذه الصورة الكريهة المقيتة المنفّرة .

وعدد آيات هذه السورة ثماني عشرة آية تحفل بالعديد من المثل الأخلاقية العالية ، بحيث لو تأسّى بها المسلمون وعملوا بما فيها ، لأصبح المسلمون غاية في الفضيلة والتقوى والقوة ، فيرهبهم الأعداء ، ويحبهم الأصدقاء ، وسميت سورة الحجرات ؛ لأن الله تعالى ذكر حرمة بيوت النبي ، وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن .

فتفسير سورة الحجرات بصفة خاصة ، وتقديمها لطلاب الجامعة فيه دلالة خاصة لما تشتمل عليه هذه السورة من آداب اجتماعية وخلقية تتكشف في كيفية خطاب الناس للرسول ﷺ ، ومن ثم ما ينبغي للرجل أن يسلك من وسائل حين يخاطب من هو أرفع منه منزلة ، وأعلى مكانة ، فلا يتقدم عليه ، ولا يرفع صوته فوق صوته ، ولا يتحدث معه كما يتحدث مع الآخرين ، وعليه أن يعرف من آداب الزيارة ألا يذهب إلى الناس في وقت الراحة ، بل في وقت يكون صاحب الدار مستعداً فيه لملاقاته .

ثم علينا أن نتبيّن من صحة الأنباء التي تنقل إلينا فربما لم تكن صائبة ، فإذا أخذنا بها وتبيّن خطؤها ، أسفنا على ذلك أشد الأسف ، وندمنا أبلغ الندم على هذا التصرف ، فالله يحب منا الطاعة والاستسلام لأوامره ونواهيه ، وأن نبتعد عن الكفر والفسوق والعصيان .

وإذا وقع شجار أو خلاف بين طائفتين من المؤمنين ، وجب علينا أن

نسعى بالصلح بينهما ، فإذا طغت إحداهما على الأخرى وظلمتها ، فينبغي أن نقف ضدها ونواجهها ونقاتلها حتى ترجع عما ارتكبته وتكف عن الظلم ، فإذا استجابت لذلك عملنا على أن نصلح بين الطائفتين دون أن نميل إلى إحداهما على حساب الأخرى ، فالله يحب العدل ويأمر به ، فالمؤمنون إخوة وليسوا أجانب ، والصلح بين المؤمنين كالصلح بين الإخوة الأشقاء .

والله خلق الناس جميعاً سواسية فكلهم لآدم وحواء ، والله لم يميز أو يفاضل بين مؤمن وآخر إلا بالتقوى .

ثم تبين لنا السورة فضل الإيمان وهو التصديق بالقلب، على الإسلام وهو القول باللسان ، فإذا آمنّا وصدّقنا لم ينقصنا الله شيئاً من أعمالنا أو ثوابنا .

فالمؤمن الكامل المخلص في إيمانه هو الذي لا يرتاب ، ولا يبخل بأمواله بل يضحي بنفسه في سبيل الله ، ومن يفعل ذلك فهو المؤمن الصادق في إيمانه .

والله العليم البصير بكل الأمور لا يفتقر أن يخبره أحد عن إيمانه أو إسلامه أو كفره ، فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ولا يحق لنا أن نمنّ على الله دخولنا في الإسلام ، ولكن الله هو الذي يمن علينا ؛ لأنه هدانا إلى الإيمان ، فالله خبير بكل ما نعمل ، عليم بكل ما نقول ، بصير بكل ما نخفي . .

وأحب أن أنبه القارىء العزيز أنّي استعنت في تفسير هذه السورة بكتب التفسير الأساسية ومن أهمها كتاب الكشاف للزمخشري ؛ وذلك لأنه يعتمد اعتماداً كلياً على النكت البلاغية وتحليل النص من خلال البلاغة ، وهو ما يحتاج إليه الطالب حقيقة في تفسير أيّ نصّ قرآني ، فبدون البلاغة لا يستطيع أحد مهما أوتي من خبرة ، أن يصل إلى الهدف المنشود إلا إذا استعان

بالبلاغة ، فلا النحو وحده ولا اللغة وحدها ولا الفقه يستطيع أن يجعل الكاتب مفسراً . وإن كنت في ذلك لم أتجنب النحو ولا اللغة ولا غيرها مما يكون المفسر في حاجة إليه، وأسال الله التوفيق وحسن السداد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أَيّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُوله واتَّقُوا اللَّهَ إنّ اللَّهَ سميعٌ عَلِيمٌ ﴾الآية ١ .

أسباب نزول الآية :

قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع ابن معبد .

وقال عمر : بل أمّر الأقرع بن حابس .

فقال أبو بكر : ما أردتَ إلا خلافي .

فقال عمر : ما أردتُ خلافك .

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن : أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله الآية .

وعن عائشة : أن أناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

﴿ لا تقدّموا ﴾ اتفق القراء عليها بالتضعيف ،ولو قرأ قارىء﴿ لا تقْدَموا ﴾ لكان صواباً . يقال : قَدَمت في كذا وكذا ، وتقدّمت .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ من غير ذكر مفعول وجهان :

أحدهما ، أن يحذف ليكون التقديم عاماً فيشمل كل ما يقع في النفس مما يقدم .

والثاني : ألّا يقصد ذكر المفعول ولا حذفه فيكون التركيز على الفعل ، ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذِي يُحْيي وَيُمِيت ﴾ . أي ؛ كل أحد وكل شيء . أو أن المراد الإحياء والموت . إلا أن الوجه الأول أوجه ، وأملأ بالحسن ، وأشد ملاءمة لبلاغة القرآن ، والعلماء عليه أقبل .

وحقيقة قولهم : جلست بين يدي فلان : أن يجلس قريباً منه بين اليمين والشمال ، فسميت الجهتان يدين على سمت اليدين توسعاً ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع ، وهو الذي يسميه أهل البيان مجاز مرسل علاقته المجاورة .

وهنا فائدة جليلة وهي : تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عن الإقدام عليه مخالفين في ذلك القرآن والسنة ، وفي هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص ، وعليهم ألا يقطعوا أمراً إلا بعد الإذن فيه فيكونون عاملين بالوحي المنزل ، أو مقتدين برسول الله ﷺ .

وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما تلا هذه الآية من رفع أصواتهم فوق صوت الرسول ؛ لأن من حظي بهذه المنزلة واختص هذا الاختصاص من قبل الله تعالى ، وجب علينا أن نجلّه ونتهيب له فنخافت بين يديه بالكلام . ﴿ واتّقُوا اللّه ﴾ لأن من اتقى منعته تقواه أن يأتي ما ينهي الله عنه ، ويحذر أن يقارف بعض الرذائل حتى يحفظ نفسه مما قد يلصق بها من العار .

﴿ إنّ اللّه سَمِيعٌ ﴾ لما تقـولـون ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمـا تعملون ، وحق مثله أن يتقي ويراقب

والمعنى : يا أيها المؤمنون ، يا من اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله ، لا تقدموا قولاً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله ، وحذف المفعول هنا للعموم ، ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعـل ، فإذا عـرضت مسألة في مجلسه فلا يسبقونه بالجواب ، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل ، وإذا ذهبـوا معه إلى مكـان لا يمشون أمـامه وهكـذا في كل فعـل أو قـول . واتقوا الله فيما أمركم به ، إن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنيّاتكم وأحوالكم .

وعبر بالإسم الظاهر وهـو لفظ الجلالـة فقال ﴿ واتقـوا الله ﴾ ، بدلاً من قوله واتقوه ، لتربية المهابة والروعة في النفس .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِـالْقَـوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنتمْ لَا تَشْعُـرُون ﴾ الآية ٢ .

﴿ لا تـرفعوا أصـواتكم ﴾ وفي قراءة عبـد الله « بـأصـواتكم » ومثله في الكـلام : تكلم كلامـاً حسناً ، وتكلم بكـلام حسن . ﴿ أنْ تَحْبَط أعْمَالُكُمْ ﴾ وفي قراءة عبد الله : « فتحبطَ أعمالكم » .

كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم ، وعن ابن عباس : « نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقـد ، وكان جَهْوَرِيّ الصوت ، فكان إذا تكم رفع صوته ، وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته » .

والمراد بقوله ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إذا نطق ونطقتم فعليكم أن تغضّـوا أصواتكم ولا تبلغـوا بها وراء الحـد الذي يبلغـه بصـوتـه ، بحيث يكون كلامـه عاليـاً لكلامكم حتى تكـون مزيتـه عليكم واضحة . لا أن تغمروا صوته بلفظكم .

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِـالْقَوْلِ ﴾ أي إذا كلمتمـوه وهو صـامت فإيـاكم ورفع الصـوت ؛ بل عليكم ألا تبلغـوا بـه الجهـر الـدائـر بينكم ، وأن تتعمـدوا في مخـاطبته القـول البيّن القـريب من الهمس الـذي يضـاد الجهـر كمـا يخـاطب المهيب ؛ عملاً بقوله وتعالى وتعزّروه وتوقّروه .

وقيل معنى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ لا تقولوا له : يا محمد يا أحمد وإنما تخاطبوه برسـول الله أو نبيّ الله ، وليس الغـرض برفـع الصـوت ولا الجهر ، مـا يقصد بـه الاستخفاف والاستهـانـة ؛ لأن ذلـك كفـر والمخاطبون مؤمنون ، وإنما الغرض ألا يكون الصوت غير مناسب لما يهـاب به العظماء ويوقر به الكبراء . وكذلـك لم يتناول النهي رفـع الصوت الـذي لا يتـأذّى بـه رسـول الله ﷺ ، وهـو مـا كـان منهم في حـرب أو مجـادلـة ؛ ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين : « اصرخ بالناس » .

وفي قـراءة ابن مسعود (لا تـرفعوا بـأصواتكم) والبـاء مـزيـدة ، وليس المعنى في هذه القراءة بأنهم نهوا عن الرفع الشديد للصوت تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسموحاً به مباحـاً لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كـانوا عليـه من الجَلَبة والجفاء فيما كانوا يقولان ، فالمؤمنون لم ينهوا عن الجهر مـطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافته ، وإنما نهـوا عن جهر اعتـادوه فيما بينهم وهو الخلو من مراعاة جلال النبوة .

فالتشبيه في قوله تعالى : ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ في محل نصب ، أي : لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض .

﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ في محل نصب مفعول له .

وهـو متعلق بالمعنى المنهي عنـه ، كأنـه قـال : انتهـوا كـراهيـة حبـوط

أعمالكم ، على حذف مضاف كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لكُمْ أنْ تَضِلُّوا ﴾ أي خشية أن تضلوا .

وقد دلت الآية على أمرين هائلين :

الأول : أن فيما يرتكبه المؤمن من الآثام ما يحبط عمله .
والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط ، ولعله عند الله كذلك .

فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز من الخطأ ، ويتوقى من الإثم .

أي : إذا كلمتم رسول الله فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوت النبي ، ولا تبلغوا في الجهر عند مخاطبته كما يجهر بعضكم في الحديث مع بعض ، ولا تخاطبوه باسمه فلا تقولوا له يا محمد أو يا أحمد ولكن قولوا : يا نبيّ الله ، ويا رسول الله تعظيماً لقدره ، ومراعاة للأدب ؛ خشية أن تحبط أعمالكم وتبطل أفعالكم من حيث لا تشعرون ، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ، استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل .

﴿ إنّ الذينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولَئِكَ الـذِينَ امتحن اللَّهُ قلوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيم ﴾ آية ٣ .

امتحنها : أي أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج جيده ويسقط خبثه .

أسباب نزول الآية :

لما نزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عديّ بن العجلان فقال : ما يبكيك ؟ قال : هذه الآية . أتخوّف أن تكون نزلتْ فيّ ، وأنا صيّت رفيع

الصوت ، فرفع عاصم ذلك إلى رسول ﷺ ، فدعا به ، فقال : أما ترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟ قال : رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ إِنَّ الذِين يَغُضّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ﴾ امتحن فلان لأمر ، وجرّب لـه ، ودرّب للنهوض به ، فهو مضطلع به ، متحمل لمسؤوليته .

والامتحان : افتعال من محن ، وهو اختبار بليغ ، وبلاء جهيد .

والمعنى : أنهم صابرون على التقوى ، متحملون لمشاقها ، فكأنه قيل عرّف الله قلوبهم للتقوى ، وهي منصوبة على الحال . أو مفعول لأجله فيكون المعنى : ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون ؛ لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها .

ونظم الآية على هذا المنوال الذي رتبت عليه؛ من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لإن المؤكدة ، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً ، والمبتدأ اسم إشارة (أولئك الذين) واشتمال الجملة جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهمة (مغفرة) يدل على غاية الاعتداد والرضا على فعل الذين وقّروا رسول الله من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ ، وقدره ، وشرفه ، ومنزلته .

وفي الآية أيضاً تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم ، وفعلهم ما ينبغي عليهم ألّا يفعلوه .

والمعنى : إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرّنهم عليها ، وجعلها صفة راسخة فيهم ،

ومن يفعل ذلك له في الآخرة صفح عن ذنبه ، وثواب عظيم جزاء لما فعل من حسن الأدب في حضرة الرسول .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الحجرات ، الآية ٤ .

أسباب نزول الآية :

جاء ناسٌ من العرب إلى حُجَر النبي ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد يا محمد .

وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فلم يجبه فقال : يا محمد إن مدحي لزَين وإن ذَمّي لشيْن ، فقال ذلّكم الله .

الوراء : الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدّام .

ومِنْ : لابتداء الغاية ، وأن النداء نشأ من ذلك المكان . فإن قلت : أفرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه (مِنْ) وما تسقط عنه ؟ قلت : الفرق بينهما أن المنادِي والمنادَى في الأول يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني لا يجوز .

والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار ، لا يريد وجه الدار ولا ظهرها ، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة مطلقاً بغير تعيين . والانكار لم يتوجه عليهم من قِبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو من وجوهها ، وإنما أنكر الله عليهم نداءهم على الرسول ﷺ نداء الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة .

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة والمسوّدة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهي فُعلة بمعنى مفعولة كالغر وجمعها : حُجُرات بضمتين ، والحُجَرات بفتح الجيم ، والحجْرات بتسكينها ، وقريُ

بهنّ جميعاً . يقول الفـراء : كل مـا كان على شـاكلة غُرَف وحُجَـر إذا جمعته بالألف والتاء ، تفتح ثانيه والرفع أجود من ذلك(1) .

والمـراد : حجـرات نسـاء الـرسـول ﷺ ، وكـانت لكـل واحـدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم تفرقوا في الحجـرات ، فناداه بعض من وراء هذه وبعضٌ من وراء تلك ، وأنهم قد أتوها حجـرة حجرة فنـادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيهـا ، ولكنها جمعت إجـلالاً لرسول الله ﷺ . ولمكان حرمتـه . والفعل وإن كـان مسنداً إلى جميعهم فـإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقون راضين فكأنهم تولّوه .

والإخبـار عن أكثـرهم بـأنهم لا يعقلون،يحتمـل أن يكـون الحكم بقلة العقـلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكـون فيهم من يعقل ، فـإن القلة تقع مـوقع الكثرة في كلامهم .

فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى .

فيه التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه .

وفيه الكناية بلفظ الحجرات عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

وفيه الاختصار في الألفاظ على القدر الذي يبين ما يتنكر عليهم .

وفيه التعريف باللام دون الإضافة كما في (الحجرات) .

وفيـه تهوين الخـطب على الرسـول ﷺ عندمـا ذمهم لجفـائهم ، ورقـة عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في الخطاب .وهلم جرا .

والمعنى . إن الــذين يـدعــونـك من وراء الحجــرات ، حيث منـازل أزواجـك الطاهـرات ، أكثرهم غيـر عـاقـل ؛ إذ العقـل يقتضي حسن الأدب ،

---

(1) معاني القرآن ـ الفراء ح ٣ / ٧٠ .

ومراعاة العظماء عند خطابهم ، لاسيما من كان في مقام النبوة ومكانة الرسل .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الآية ٥ .

الصبر : حبس النفس عن منازعة هواها ، وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس ، ولهذا قيل للحبس والقتل : صبر ، وفي كلام بعضهم : الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾ أنهم صبروا في موضع رفع على الفاعلية ؛ لأن المعنى ، ولو ثبت صبرهم .

فإن قلت : هل من فرق بين ﴿ حَتَّى تَخْرُجَ ﴾ وإلى أن تخرج ؟ .

قلت : إنّ حتى مختصة بالغاية ونهاية الشيء ، تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها أو صدرها لم يجز .

بخلاف « إلى » فهي عامة في كل غاية .

فقد أفادت « حتى » أن خروج الرسول ﷺ غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه .

وما فائدة قوله « إليهم » ؟

الفائدة : أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم .

﴿ لَكَان خَيْراً لَهُمْ ﴾ في كان ضمير فاعل وهو مصدر من الصبر أي لكان الصبر خيراً لهم .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي بليغ الغفران والرحمة ، واسعهما فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

والمعنى : أي لو أن هؤلاء المنادين لم يـزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم، وصبروا حتى يخرج إليهم،لكـان ذلك الصبـر خيراً لهم وأفضـل عند الله وعنـد الناس ؛ لما فيه من مراعـاة الأدب في مقام النبـوّة ، والله غفور لـذنوب العباد، رحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم ولم ينزل العقاب بهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمـاً بِجَهالَـةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين ﴾ الآية ٦ .

أسباب النزول :

أخـرج أحمد وغيـره بسند جيـد عن الحـرث بن ضرار الخـزاعي قـال : قدمت على رسول الله ﷺ ، فـدعاني إلى الإسـلام فأقـررت به ودخلت فيـه ، ودعـاني إلى الزكـاة فـأقـررت بهـا ، وقلت يـا رسـول الله ؛ أرجـع إلى قـومي فأدعوهم إلى الاسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي ، جمعت زكاته فتـرسل إليّ برسولك ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحرث الزكـاة ، أرسل الـرسول ﷺ الـوليد بن عقبـة ليقبض ما كـان عنده ، فلمـا أن سار الـوليد إلى الحرث وجده في جماعته ففرِقَ ورجع وقال : إن الحرث منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فأرسل عليه الصلاة والسلام من يستطلع جلية الأمر ، فقالوا للحرث بن ضرار : إن الرسول بعث إليك الوليد بن عقبـة، فزعم أنـك منعته الـزكاة وأردت قتله ، قال : والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ ﴾ إلى قوله ﴿ واللّهُ عَلِيمٌ حكيمٌ ﴾ .

وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليـد فوجـدهم منادين بـالصلاة متهجـدين فسلموا إليه الصدقات فرجع .

الفسـوق : الخروج من الشيء والانسـلاخ منه ، يقـال : فسقت الرطبـة عن قشرها ، أي خرجت ، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق ، قال رؤبة :

فــواسِقــاً عَنْ قَصْــدِهَــا جَــوَائِــرا

﴿ فَتَبَيَّنُـوا ﴾ : طلب البيان وقـرىء فتثبّتـوا ، وهمـا بمعنى واحـد ، أي أمهلوا حتى تعرفوا .

بجهالة : يعني جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة .

فتصبحوا : فتصبروا .

والندم : الغمّ وملازمته .

نكّر « فاسق ونبأ » في قوله تعالى : ﴿ إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قصدا إلى الشيـوع فكأنـه قال: أيّ فـاسق بأيّ نبـأ فتوقفـوا فيـه، وتـطلبوا الأمـر وانكشاف الحقيقـة ، ولا تعتمدوا قـول الفاسق ؛ لأن الـذي لا يتحـامى جنس الفسق لا يتحامى جنس الكذب فهو نوع منه . ولذلك كان الرسول والصحابة من المنزلة بحيث لا يجسر أحد أن يكـذب عليهم، وما حـدث من الوليـد بن عقبة هـو أمر نادر الوقوع .

وعبـر (بـإن) هنا وهي للشـك، حتى ينبه أن المؤمنين الـذين على هـذه الصفة من التبيّن والتثبت، لا يطمع فاسق أو كاذب في مخاطبتهم بكلمة زور أو بهتان .

﴿ أَنْ تَصِيبُوا ﴾ مفعول له ، أي : كراهة إصابتكم .

﴿ قَوْماً بِجَهالَةٍ ﴾ حال ، أي : جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة .

لمـا بدر منكم بعـدم التثبت والتيقّن قبل الأخـذ بـالأمـر والمضي فيـه . فيصيبكم من الغم الـذي يصحب الانسـان صحبـة دائمـة لا تفـارقـه ، فهم يجعلون الْهَمَّ صاحباً ونجياً وسميراً وضجيعاً لا يفارق صاحبه .

والمعنى : إذا أتاكم رجل فاسق ـ غير موثوق بصدقه وعدالته ـ بخبـر من

الأخبار ، فتثبتوا من صحة الخبر ، حتى لا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ، فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم .

﴿ واعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ والعِصْيانَ أُولئكَ هُمُ الرَّاشِدُون ﴾الآية ٧

العنت : الهلاك ، يقال : فلان يتعنّت فلان : أي يطلب ما يؤديه إلى الهلاك ، وقد أَعْنَتَ العظم إذا هيض بعد الجبر ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ تصديق قول الوليد بن عقبة الذي أرسله لجباية الزكاة من الحرث ، وأن بعضهم كانوا يتورّعون أن يجسروا على الكذب مع رسول الله ، ولذلك استثناهم الله بقوله ﴿ ولكنّ الله حبّبَ إليكم الإيمان ﴾ أي بعضكم .

والكفر : تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود والنكران .

والفسوق : الخروج عن طريق الإيمان باقتراف الكبائر .

والعصيان : ترك الانقياد بما أمر به الشرع ، يقال : اعتصت النواة : اشتدت ، والعرق العاصي : العاند .

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع التصلب فيه ، والرشادة : الصخرة .

الجملة المصدرة بلو ليست استئنافاً ؛ لأن ذلك يؤدي إلى تنافر النظم ؛ وإنما هي متصلة بما قبلها من الضمير المجرور في : فيكم .

والمعنى : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهي أنكم تحاولون أن يرضيكم الرسول

فيخضـع لآرائكم وأقوالكم . ولـو فعـل ذلـك لـوقعتكم في العنت والهـلاك . فبعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ أنه يـأخذ بـرأي الوليـد بن عقبة ، ولكن بعضهم الآخر من الذين حبّب الله إليهم الإيمان، وامتحن الله قلوبهم للتقوى، وأودع في نفـوسهم الصدق وتحـرى الحق ، استثناهم الله عـز وجـل ووصفهم بالرشاد لتصديقك وصدقهم .

فـإن قلت : ما فـائدة تقـديم خبر إن على اسمهـا ؛ في قـولـه تعـالى : ﴿ واعْلَمُوا أنّ فيكم رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ؟

قلت : الغرض هو تـوبيخ بعض المؤمنين، واستهجان ما وقـع منهم في الضغط على رسول الله ليخضع لآرائهم ، فوجب تقديمه لأنه القصد والغاية ، أي الاهتمام بشأنهم .

وإن قلت : لم قيل : نقول عبر هنا بالفعل المضـارع لاستحضار صـورة أعمالهم واستمرارها وصوابها ، وكلما عنّ لهم أمر ظنّوا أنه القول الفصـل الذي ينبغي أن يعمل به . كما تقول : هـو يقري الضيف ، ويـواسي المكلوم ، أي أن ذلك من دأبه وعادته التي لا تتخلف بحال من الأحوال .

فإن قلت : شرط لكنّ الاستدراك ، أي أن ما بعدها يكون مخالفاً لما قبلها ، وهذا الشرط مفقود في الآية الكريمة .

قلت : هـو مفقـود من حيث اللفظ فقط ، ولكنـه حـاصـل من حيث المعنى ؛ لأن الذين حبّب إليهم الإيمان صفتهم على غير صفة المتقـدمين في الذكر ، فوقعت لكنّ في موقعها الصحيح .

ومعنى حبّب إليكم الإيمان ، أي وفقكم إليه على سبيل الكنايـة ، فكل ذي لبّ وبصيرة يرى أن الرجل لا يمدح بغير فعله ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بغيـر أفعـالهم ، وإنمـا بفعـل الله الـذي حبب إليهم

الإيمان ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم فقال : ﴿ وَيُحبون أنْ يحمدوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ .

وإذا قلنا : إن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجه وذلك فضل الله تعالى : نقول : إن ذلك مقبول عند الناس غير مردود ، والذي سوغ لهم ذلك ؛ أنهم رأوا حسن الرواء ، ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن خلق محمود ، فكان ذلك من صفات المدح لا لذاته ولكن لدلالته على غيره . فمدحهم الله بقوله ﴿ أُولئكَ هُمُ الراشدون﴾ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا فاستحقوا المدح لمطاوعتهم له . وضمير الفصل هنا يفيد القصر ، أي هم الراشدون لا غيرهم .

والمعنى : واعلموا أيها المؤمنون أن بينكم الرسول المعظم والنبيّ المكرم ، والمعصوم عن اتباع الهوى ، لو سمع وشاياتكم ، وأصغى بسمعه لإرادتكم ، وأطاعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور ، لوقعتم في الجهد والهلاك ، ولكن الله تعالى نوّر بصائركم فحبّب إلى نفوسكم الإيمان وحسّنه في قلوبكم، حتى أصبح عندكم أغلى من كل شيء ، وبغّض إلى نفوسكم أنواع الضلال من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله ، فأولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون الراشدون في سيرتهم وسلوكهم .

﴿ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الآية ٨

فضلاً : مفعولاً له .

فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد فعل القوم، والفضل ، فعل الله تعالى . والشرط في المفعول له أن يتحد الفاعل ؟ .

قلت : لما وقع الرشد : عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه في الآية السابقة مسنداً إلى اسم الله تعالى ، صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه .

ويجوز أن يكون مفعولاً له ، ليس عن الراشدين ، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى : أي وحبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر إلى قوله أولئك الراشدون ، وجملة ـ أولئك هم الراشدون ـ جملة اعتراضية .

كما يجوز أن تكون مفعولاً له وفعله مقدر، كأنه قيل :جرى ذلك فضلاً من الله ، أو كان ذلك فضلاً من الله .

ويمكن أيضاً أن تكون ـ فضلاً ـ مصدراً من غير فعله ؛ لأن الرشد فضل من الله تعالى ؛ لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام .

﴿ واللَّهُ عليمٌ حَكيمٌ ﴾ أي عليم بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ، وحكيم حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم .

أي أن هذا العطاء الذي منحكم الله إياه، هو فضل منه عليكم، ونعمة من لدنه ، وهو عليم بمن يستحق الهداية ، ممّن يستحق المغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله ، وشرفه وأحكامه .

فهذا العطاء تفضل منه تعالى عليكم وإنعام لكم ، فهو عليم بمن يهتدي ويغوي ، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره .

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخْرى فَقَاتِلُوا التي تَبْغي حَتَّى تَفِيءَ إلى أمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين ﴾ ﴿ إنما المؤْمِنُون إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الآية ٩ ـ ١٠ .

قوله تعالى : ﴿ وإنْ طَائِفَتَانِ ﴾

عن أنس رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ ركب حماراً ، وانطلق إلى عبد

الله بن أبيّ ، فقال : إليك عني ، فقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار ؛ والله لحماره أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت فيهم : ﴿ وإنْ طائِفَتَانِ منْ المؤْمِنينَ اقتتلُوا فأصْلِحُوا بيْنهما ﴾

ويقال : سبب آخر في نزول الآية :

كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد ، وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، وكان الرجل قد خرج فاستعان بأهله ، فجاء بنو عمه ليحولوا بعد المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت نيهم هذه الآية . فبعث بهم رسول الله فأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله .

وهناك رواية ثالثة وهي : أن الآية نزلت في رجلين من الأنصار ، كانت بينهما مداراة في حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقي عنْوَة ؟ لكثرة عشيرته ، وأن الآخر دعا ليحاكمه إلى النبي ﷺ فأبى ، فلم يزل الأمر حتى تدافعوا ، وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف .

﴿ طائفتان ﴾ : الطائفة من الشيء قطعة منه ، وقال تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المؤْمِنين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الواحد فما فوقه .

﴿ وأقسطوا ﴾ : من أقسط بمعنى عدل ، والهمزة للنفي ، أي : أزال القسط وهو الجور ، والقسَط بالفتح : الجور من القسط ، وهو اعوجاج في الرجلين ، وعود قاسط: يابس .

فإن قلت : ما وجه قوله اقتتلوا ، والقياس : اقتتلتا ، أو اقتتلا على تأويل الرهطين أو النفرين ؟

قلت : هو ما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس .

وفي قراءة عبد الله : حتى يفيئوا إلى أمر الله ، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط .

وحكم الفئة الباغية : وجوب قتالها ما قاتلت .

وعن ابن عمر : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية ، إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل ، فإذا كفَّت أيديَها وقبضتها عن الحرب تُركت ، وإذا مضت في طريق الحرب وابتعدت عن السلم أعمل بما روي عن النبي ﷺ فقد قال: «يا بن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : لا يُجْهَزُ على جريحها ، ولا يُقتل أسيرها ، ولا يُطلب هاربها ، ولا يُقسّم فَيْئها » .

ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما :

إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً ، فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين .

فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا ، وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما .

وإما أن يلتحم بينهم القتال لشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما تعتقد أنها على حق ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيّرة والبراهين القاطعة ، واطلاعهما على طريق الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على ما نصحتا به ، من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين .

وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكفّ وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل .

فالغرض من الصلح وإقامة العدل بين الطائفتين ، إماتة الضغائن وسلّ الأحقاد ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ، ما إن لم يفضل الإخوّة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قد جرت عادة الناس إذا نشبت خصومة بين اثنين من الإخوة الأشقاء لزم سائر الناس أن ينهضوا لرفع أسباب الخصومة وإزالة ما بينهم من لجاج ، فيركبوا الصعب والسهل مشياً بالصلح بينهما إلى أن يصادف من يزيل هذا الخلاف ، ويلمّ ما وهن من الوصال ، فالأخوة في الدين أحقّ بذلك وبأشد منه . وعن النبي ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يَظلمه ولا يخذُلُه ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريحَ إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقَتَار قِدره » أي برائحة الطعام المتصاعد من أواني الطبخ .

فإن قلت : لم قرن بالإصلاح الثاني ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ العدل ، دون الأول ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ؟

قلت : لأن المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتي شبه . وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين بإرادة الحق والموعظة الشافية ، ونفي الشبهة ، فإذا أصرّتا فحينئذ يجب المقاتلة .

فإن قلت : لم خص الاثنان بالذكر دون الجمع ؟

قلت : لأن أقل من يقع الشقاق بينهم اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ؛ لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين .

وقيل المراد بالأخوين في قوله : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْن أَخَوَيْكُمْ ﴾ الأوس والخزرج ، وقرىء : بين إخوتكم وإخوانكم ، ولو قيل ذلك لكان صواباً .

« وإنما » في قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ تفيد القصر ، والمعنى ليس المؤمنون إلا إخوة ، أي غير أجانب ، فقد انزاحت عنهم شبهة الأجنبية ، فإذا امتزجوا واتحدوا كما هو الشأن بين الإخوة الأشقاء ، ولم يقدموا على ما يتولد من التقاطع والتدابر والخلاف ، فإن وقع شيء من ذلك ، حسموه وقطعوه .

إنكم إن فعلتم ذلك من الترابط والتآخي والاتحاد لم تحملكم التقوى إلّا على تجنب الفرقة والبعد عن الشقاق ، و﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون ﴾ عند ذلك تصلكم رحمة الله ويشملكم بعنايته ورعايته، فتعقدوا عليها الآمال وتحققوا الرجاء .

والمعنى : إن حدث أن جماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما ، فإن تجاوزت إحداهما الحدّ بالظلم والطغيان ولم تقبل الصلح ، وصممت على البغي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتقلع عن البغض والعدوان ، فإن كفّت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل دون حيف على إحدى الفئتين ، فالله يحب العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم ، فليس المؤمنون إلا إخوة ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عدواة ولا شحناء ولا تقاتل .

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَنِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمون ﴾ الحجرات الآية ١١ .

أسباب نزول الآية :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بالْأَلْقاب ﴾ .

كان الرجل من العرب يكون له الاسمان والثلاثة فيدعي ببعضها فعسى أن يكرهه فنزلت . ويقال : إن الرسول ﷺ دعا رجلاً بلقبه ، فقيل له : يا رسول الله : إنه يكرهه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بالْأَلْقَاب ﴾ .

وروى عن الضحّاك أن قوماً من بني تميم استهزءوا ببلال ، وخبّاب ، وعمّار ، وصُهيب ، وأبي ذرّ ، وسالم مولى حذيفة ، فنزلت .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حييّ أتت رسول الله ﷺ فقالت : إن النساء يعيّرنني ويقلن : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله ﷺ : هلاَّ قلت : إن أبي هرون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد .

وروي أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع ، فأتى يوماً وهو يقول : تفسحوا لي حتى آتي رسول الله ﷺ فقال لرجل : تنحّ ، فلم يفعل ، فقال : من هذا ؟ فقال رجل : أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد أمّا كان يعيّر بها في الجاهلية ، فخجل فنزلت . فقال ثابت : لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً .

﴿ القَوْمُ ﴾ : الرجال خاصة لأنهم القوّامون بأمور النساء ، قال الله تعالى : ﴿ الرّجالُ قوّامُون علَى النساء ﴾ ، وقال عليه الصلاة والسلام : « النساء لَحْمٌ عَلَى وَضَم إلاّ مَا ذَبَّ عَنْهُ والذَّابُون هُمُ الرِّجَال » وهو في الأصل جمع قائم ، كصُوَّم جمع صَائم ، وزُوَّر جمع زائر .

واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية ، وفي قول زهير :

أقوم آل حِصْنٍ أم نساءُ

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم يجري على الفريقين، ولكن قصد الذكور وترك الإناث؛ لأنهن توابع لرجالهن .

وفي قراءة عبد الله : عَسْوا أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عَسْين أن يكنّ خيراً منهنَّ .

﴿ اللمز ﴾ : الطعن والضرب باللسان .

﴿ التنابز بالألقاب ﴾ : التداعي بلقب السوء المنهي عنه ، وهو الذي يدخل في نفس المدعو به الكراهة والنفور ، لكونه زحّالة وشيْنا ، فأمّا ما يحبّه ويزيّنه وينوّه به فلا بأس به .

روي عن النبي ﷺ : « من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه » ولهذا كانت التكنية من السنّة والأدب الحسن ، وقد لقب أبو بكر بالصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله ، وقلّ من المشاهير من الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطبتهم ومكاتباتهم من غير نكير .

﴿ بئس الاسم ﴾ الاسم هنا بمعنى الذكر من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته وحقيقة (الاسم) ما سما من ذكره وارتفع بين الناس . كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق .

فالله تعالى ينهي في هذه الآية عن السخرية بالناس واحتقارهم والاستهزاء بهم ، وهذا حرام ، فقد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له . فلا تلمذوا الناس لأن اللّماذ مذموم

ملعون كما قال الله تعالى في محكم آياته ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ فالهمز يكون بالفعل ، واللمز بالقول .

وفي قوله : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ينهى عن طعن بعضكم على بعض ، ولا يدعو بعضكم الآخر بلقب يسوء إليه ، ومن لم يتب عن هذا القول فقد ظلم نفسه ، ولا علينا أن نعيب غيرنا إذا كان على غير ديننا ، ولا يسير بسيرتنا لقول الرسول « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » .

وتنكير القوم والنساء أراد به ألا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، فقد قصد به العموم أي أن كلّ جماعة ،أي جماعة منهية عن السخرية من غيرها .

وإنما لم يقل : لا يسخر رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة بالإفراد ، لاحتمال أن يَقْدُمَ غير واحد من الرجال وغير واحدة من النساء على السخرية .

وربما لم يعبر بالإفراد استفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه فلاءم التعبير باسم الجمع .

وكذلك لأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو من المشاركة والتبعية ، فيكون شريك الساخر وتابعه متحملاً للوزر .

ولأن كل من يطرق سمعه سخرية يستطيبها ويضحك بها ، فيؤدي ذلك إلى كثرة الساخرين فينقلب الواحد جماعة .

ولم يصل قوله ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيراً مِنْهُمْ ﴾ بما قبلها بالفاء لأنها كلام مستأنف ورد مورد الجواب عن السؤال الموجب لما جاء النهي عنه .

وفي قوله : ﴿ بَعْدَ الإِيمَان ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان

ويحظره ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبْرَة الصَّبْوة .

الثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود يا يهودي ، يا فاسق ، فنهوا عن ذلك ، وقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه .

الثالث : أن تجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة ، بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة .

والمعنى : يا معشر المؤمنين ، يا من اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله ، وبرسوله ، لا يهزأ جماعة من جماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون الذي سخر منه أفضل عند الله من الساخر ، وربّ أشعث أغبر ذو طمرّين لو أقسم على الله لأبّره ، وكذلك لا تسخر امرأة من امرأة فربما تكون خيراً من الساخرة عند الله ، ولا يعب بعضكم بعضاً ، ولا يدع بعضكم بعضاً بألقاب السوء ؛ لأن المسلمين كلهم كنفس واحدة ، وبئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً ، ومن لم يتب عن اللمز والتنابز ، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعض الظَّنِّ إِثمٌ وَلَا تجسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه وَاتقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ الحجرات الآية ١٢ .

أسباب نزول الآية :

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾

زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي ، أكل ، ثم رقد ، فذكر رجل أكله ورقاده فنزلت .

وعن ابن عباس أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوِّي لهما طعامهما . فنام من شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله ﷺ : فقال : ما عندي شيء ، فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قال : لو بعثناه إلى بئر سميحة - بئر بالمدينة - لغار ماؤها ، فلما رحلا إلى رسول الله ﷺ ، قال : « مَا لي أرى خُضْرَةَ اللّحْمِ في أفْوَاهِكُمَا » فقالا : مَا تناوَلْنا لحْماً ، فقال « إنكمَا قدْ اغْتبْتما » فنزلت .

اجتنبوا : يقال جنّبه الشر : إذا أبعده عنه ، وحقيقته جعله منه من جانب ، فيعدي إلى مفعولين ، قال الله عز وجل : ﴿ واجْنُبني وَبَنيَّ أنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ ﴾ والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ إنَّ بَعْض الظنِّ إثْم ﴾ .

الإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب .

ولا تجسسوا : وقرىء ولا تحسسوا بالحاء ، والمعنيان متقاربان يقال : تجسس الأمر : إذا تطلبه وبحث عنه ، تفعَّل من الجسّ

والتحسس : التعرف من الحس ، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان الحواسّ .

ويقال : إن التجسس غالباً يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس . وأما التحسس فيكون غالباً في الخير ، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب : ﴿ يَا بَنِيّ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّه ﴾ .

﴿ وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ الغيبة من الاغتياب كالغِيلة من الاغتيال وهي ذكر السوء في الغيبة : سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه » وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس .

في هـذه الآية ينهي الله سبحـانـه وتعـالى عبـاده المؤمنين عن كثيـر من الظن ، وهو التهمـة والتخون لـلأهل والنـاس في غير محله ؛ لأن بعض ذلـك يكـون إثماً محضـاً ، قال عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه : لا تـظنّن بكلمـة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محتملاً .

وعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « إيّـاكم والـظّنّ ، فـإنّ الـظنّ أكـذب الحـديث ، ولا تجسَّسُـوا ولا تحسَّسُـوا ، ولا تَنافسوا ، ولا تحاسَدُوا ، وَلَا تباغَضُوا ، ولا تَدابَرُوا ، وكونُوا عِبادَ اللّه إخواناً » أخرجه البخاري .

وكمـا يكـره الإنسـان أن يـأكـل لحم الأخ الميت بـطبعـه ، وينفـر عنـه بوجدانه ، فيكره له أن يغتاب أخاه المؤمن شرعاً ؛ بل إن عقـوبة الغيبـة أشد من عقوبة أكل الميت ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها .

وقـد ثبت أنـه ﷺ قـال في خـطبـة الـوداع : « إن دمـاءكم وأمـوالكم وأعـراضكم عليكم حـرام كحـرمـة يـومكم هـذا في شهـركم هـذا في بلدكم هذا » .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « كُلُّ المُسلِم على المُسْلِم حَرام : مَالهُ وعِرضهُ ودَمُه ، حَسْبُ امرِىءٍ مِنْ الشَّرِّ أنْ يَحْقُرَ أخاه المُسلم » .

فإن قلت : ما الفرق بين مجيء ﴿ كثيراً ﴾ نكرة كما في الآية الكريمة ، وبينه لو جاء معرفة ؟

قلت : مجيئـه نكرة يفيـد معنى البعضية ، وأن في الـظنون مـا يجب أن يجتنب من غير تبيين ولا تعيين؛ لئلا يجترىء أحد على ظنّ إلاّ بعد نظر وتأمل وتمييز بين الحق والباطل بدليل قاطع ، مع شعور بالتقوى والحذر .

ولو عرّف لكان الأمر باجتناب الظن مرتبـطاً بما يكثـر منه دون مـا يقلّ ،

ويترتب على ذلك أن يكون كلّ ظن متصف بـالكثرة مجتنبـاً ، وما اتصف منـه بالقلة مرخصاً فيه ومباحاً له .

والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له إمارة صحيحة وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتنـاب ، وذلك إذا كـان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم ، بخلاف من اشتهر بين النـاس بتعاطي الـريب والمجاهرة بالخبائث ، فلا حرمة لفاجر .

وعن الحسن : إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره ، هتكه الله ، وإذا استتر لم يظهـر الله عليه لعله أن يتـوب ، وقد روي : من ألقى جلبـاب الحياء فلا غيبة له .

وعن النبي ﷺ :

« أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن قال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فـإن من تتبع عـورات المسلمين تتبّع الله عـورته حتى يفضحـه ولـو في جـوف بيته » .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكمْ أَنْ يَأكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُموه ﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه مبالغات شتى :

منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، أي : لا يحب أحـدكم أن يأكـل لحم أخيه ميتاً .

ومنها : جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة .

ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً لا يحب ذلك .

والله رحيم لمن يرجع إليه تائباً معتمداً على صفحهِ وغفرانهِ ورحمته . وفيه حث على التوبة ، وترغيب بالمسارعة إلى الندم ، والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا الظن وابتعدوا عن التهمة والتخون للأهل والناس ، ففي بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ، ولا تتبعوا أخطاءهم وعيوبهم ، ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكره ، ويمثل القرآن شناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح ، فهل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ، فكما تكرهون هذا بطباعكم فاكرهوا الغيبة بشريعتكم ، فإن الإثم أكبر ، والعقوبة أشد ، فخافوا الله واحذروا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فالله كثير التوبة عظيم الرحمة ، وفي الآية حث على التوبة ، وترغيب بالمسارعة إلى الندم ، والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعلْناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتعارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبِير ﴾ الحجرات، الآية ١٣ .

أسباب نزول الآية :

﴿ يَا أَيها الناسُ إنّا خلقْناكم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ﴾ .

لمّا كان يوم الفتح رقى بلال على ظهر الكعبة فأذّن ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؛ لعل الله يسخط هذا بغيره فنزلت الآية .

ويقال : إنها نزلت في أبي هند : أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله نزوّج بناتنا موالينا ؟ فنزلت .

وعن يزيد بن شجرة : « مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول : من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ ، فاشتراه رجل ، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة ، ففقده يوماً ، فسأل عنه صاحبه ، فقال : محموم ، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فعرف أنه يكاد يفارق الحياة ، فجاءه وهو في ذمائه ـ يلفظ أنفاسه ـ فتولى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم ، فنزلت .

﴿ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ من آدم وحواء .

وقيل : خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فما منكم أحد إلا وهو يدلي بما يدلي به الآخر سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب .

(والشعب) : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .

فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل :

خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصيّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

وسميت شعوبا ؛ لأن القبائل تشعبت منها .

والحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب ، وقبائل ، هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ، فلا ينتسب إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد ، وتدّعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب .

ثم بين الله سبحانه الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ، ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى . فقال :

ومنهـا : أنه لم يقتصـر على تمثيل الاغتيـاب بأكـل لحم الإنسـان حتى جعل الإنسان أخاً .

ومنهـا : أنـه لم يقتصـر على أكـل لحم الأخ حتى جعله ميتـاً . وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفـة مدودة أن تـأكل منهـا ، كذلـك فاكـره لحم أخيك وهو حي .

فـالآية كنـاية عن حـالة الاغتيـاب ، وتصويـر لمدى كـراهته عنـد الله ، فالنفس الطيبة تعافه وتنفر منه ، كما ينفر الإنسان من أكـل لحم أخيه الميّت ، فقد لاحظ القرآن أن الاغتياب محبوب عند كثير من النفوس ، إذ من شأنها أن تميـل إلى الهوى ، وتكلف بـالإصغـاء إلى من يتنـاول عيـوب النـاس ويمـزّق أعراضهم ، كما يمزق المغتاب لحم من يغتـابه ، وإذا كـان أكل لحم الأجنبي مستكرهاً خبيثاً ، فما بالك بأكل لحم الأخ ، فلا شك أنه أشد كـراهة وخبثـاً ، فإذا أضفت إلى ذلك أنه ميت ، اشتد أمـر الكراهـة وعظم شـأنها حتى تتقـذره النفس وتتقيأ منه ، ومن المألوف أن يكون المغتاب غائباً ، فكـان ذلك بمنـزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعي ما يتقول عليه من أقاويل ، فلا يبدر منه دفاع ، ولا ينـدّ منه اعتـراض ، فالاغتيـاب أمر ممقـوت ، صورتـه الآية بهـذه الصورة الكريهة في أدق جزئياتها ، وكلما مرّ بنا لفظ من ألفاظ هذا التعبيـر الكنائي زاد في نفوسنا استبشاع الغيبة ، حتى إذا انتهينا من الآية قرّ في نفوسنا أنه لا مـزيد على هذه الكراهة. فانظر إلى أي مدى بلغ التصوير الكنائي في إقناعنا بالنفـور من اقتراف هذا الفعل الكريه ، والرغبة عن تناول أعراض الناس .

وقد آثر القرآن هذه الألفـاظ على ما يمـاثلها في تـأدية معنـاها ؛ تعـويلاً على البلاغة ، وإعـطاء لجانب الفصـاحة مـا يستحقه ، فنزلت الآية على هـذه الهيئة .

ولجمـال هذا التعبيـر القرآني في إبـراز صورة الغيبـة وبشـاعتهـا ، نـراه يجري على ألسنة الناس والأدباء والشعـراء في بساطـة أخاذة فيصلون منـه إلى

الغرض في دقته ومغزاه ، فيكون لـه فعل السحـر من ازدراء الغيبة ومَنْ يتصف بها .

و ﴿ مَيْتاً ﴾ هنا منصوب على الحال إما من اللحم أو من الأخ .

ولذلك لما قررهم الله سبحانه بـأن أحداً منهم لا يحب أكـل جيفة أخيـه عقب ذلك بقوله ﴿ فكَرِهْتُمُوه ﴾ .

معنـاه : فقـد كـرهتمـوه ، وفيـه معنى الشـرط : أي إن صـح ذلـك فكرهتموه ، أي جبلتم على كراهته .

وإذا كـرهتم أكل لحم الأخ الميت فعليكم أن تكـرهوا مـا هو نـظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين .

والفعل (كرهتموه) تعدى بنفسـه ولم يتعد بـإلى كما في قـوله تعـالى : ﴿ وكَرَّهَ إليكمُ الكُفْرَ ﴾ فأيهما القياس ؟

قلت : القياس أن يتعدى بنفسه ؛ لأنه ذو مفعـول واحد قبـل التثقيل ، تقول : كرهت الشيء ، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول .

وأمـا تعديـه بإلى فـلأنه ضمّن كـرّه معنى بغّض ؛ لأن بغّض منقول من بغّض إليه الشيء فهو بغيض إليه ، كقولك حبّب إليه الشيء فهو حبيب إليه .

﴿ إنَّ اللَّهَ توّابٌ رَحِيمٌ ﴾ المبالغة في التّواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده .

أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة .

أو لأنه بليغ في قبول التوبة فنزل صـاحبها منـزلة من لم يـذنب قط لسعة كرمه .

﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقرىء : ﴿ أنّ اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ بفتح همزة أنّ ، كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب ؟ فقال : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم .

﴿ إن اللّه عليم خبير ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ، ويضلّ من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير .

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً ، وهي أعم من القبائل ، وبعدها مراتب أخر ، كالفصائل والعشائر والأفخاذ وغير ذلك ، فجميع الناس بالنسبة الطينيّة إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله تعالى ، ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة ، واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿ يا أيّها النـاسُ إنّا خلقْناكم مِنْ ذكرَ وأنثى وجعلْناكم شعُوباً وقبائلَ لتعارَفُوا ﴾ كما يقال : فلان ابن فلان من قبيلة كذا وكذا . أي : إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

والمعنى الخطاب لجميع البشر ، فالله بقدرته خلقنا من أصل واحد ، وأوجدنا من أب وأم ، فلا تفاخر بالآباء والأجداد ، ولا اعتداد بالحسب

والنسب ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وجعلناكم شعوبا شتى ، وقبائل متعددة ليحصل بينكم التعارف والتآلف ، لا التناحر والتحالف ، والناس يتفاضلون بالتقوى ، فمن أراد شرفاً في الدنيا ، ومنزلة في الآخرة فليتق الله ، والله عليم بعباده مطلع على ظواهرهم وبواطنهم ، يعلم التقي والشقي ، والصالح والطالح ، ﴿ فلا تزكّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

﴿ قَالَتِ الأعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولكن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولمَّا يدْخُلِ الإيمانُ في قلوبكم ، وإن تُطيعُوا الله وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إنّ الله غفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الحجرات الآية ١٤ .

عن ابن عباس رضي الله عنه أن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة ، فأظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعَذِرَات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأثقال والذراري ، يريدون الصدقة ويمنّون عليه ، فنزلت هذه الآية وما بعدها .

الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس .

والإسلام : الدخول في السلم بإظهار الشهادتين دون أن يكون حربا على المؤمنين ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبكم ﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان .

﴿ لا يَلِتْكُمْ ﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم ، يقال : أَلَتَهُ السلطان حقه أشد الألت ، أي أنقصه وهضمه ، وهي لغة غطفان، ولغة أسد، وأهل الحجاز .

وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . ونحوه في المعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾

ومعنى طاعة الله ورسوله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ، ويعملوا بمقتضياته ، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ، ووهب لهم مغفرته ، وأنعم عليهم بجزيل ثوابه .

فإن قلت : ما وجه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؟ .

والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال :

قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا .

أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم .

قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلا ودفع ما انتحلوه من الإيمان فقيل : قل لم تؤمنوا ، وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن ووجه لطيف، حين لم يصرح بلفظ التكذيب ،فلم يقل : كذبتم ، وإنما قال : لم تؤمنوا لينفي ما ادعوا إثباته .

ولذلك حين وصف الله المؤمنين في الآية التي بعدها بقوله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون ﴾ عرّض بأن هؤلاء هم الكاذبون ، ورب تعريض لا يقاومه التصريح .

واستغنى بالجملة التي هي ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ؟ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ ينهي عن القول بالإيمان .

وكذلك لم يقل : ولكن أسلمتم ، ليكون التعبير القرآني ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ خارجا مخرج الزعم والدعوى .

ولو قيل : ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم ، وهو غير معتدّ به .

فإن قلت : قوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قلُوبكُمْ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لم تُؤْمِنُوا ﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة ؟

قلت : ليس كذلك : فإن فائدة قوله : لم تؤمنوا هو تكذيب دعواهم .

وقوله : ﴿ وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ بيان لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم ، ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم .

والتعبير بـ(لمّا) يدل على معنى التوقع الذي يدل على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد .

ومعنى الآية أن الله تعالى ينكر على الأعراب الذين ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بقوله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكنْ قُولُوا أسْلَمنا ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبكم ﴾ . وقد استفيد أن الإيمان أخص من الإسلام ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سئل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ، رواه أحمد .

فهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان ، وليسوا كذلك .

والمعنى : زعم الأعراب أنهم آمنوا ، فقل لهم يا محمد : إنكم لم تؤمنوا بعد ؛ لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب ، ولم يحصل لكم ، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة ، ولكن قولوا استسلمنا

خوف القتل والسبي . فالإيمان لم يدخل إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد ، وإن كان الإيمان سيحصل لكم عند اطلاعكم على محاسن الإسلام ، وتذوقكم لحلاوة الإيمان ، فإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق والإيمان الكامل وعدم المنّ على الرسول لا ينقصكم من اجوركم شيئاً ، فالله عظيم المغفرة واسع الرحمة .

﴿ إِنَّما المؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِم في سَبِيلِ اللَّهِ أُولئكَ هُمُ الصَّادِقُون ﴾ الحجرات الآية ١٥ .

﴿ لَمْ يَرْتابُوا ﴾ ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة .

والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ، ولا اتهام لمن صدقوه ، واعترفوا بأن الحق منه .

﴿ وَجَاهَدُوا ﴾ أي جاهدوا ضد العدو المحارب ، أو الشيطان الغاوي ، أو الهوى الجامح .

ويجوز أن يكون جاهد مبالغة في الجهد والتعب .

ويجوز أن يراد بالمجاهدة تناول العبادات بأجمعها ، والجهاد بالمال ، كما صنع عثمان رضي الله عنه حين جهز جيش العسرة بماله ، وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البرّ التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصّادقون ﴾ الذين صدقوا في قلوبهم عندما قالوا آمنّا ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد .

أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ فإن قلت : ما معنى ثم ههنا وهي تفيد التراخي ، وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ؛ لأن الإيمان يفيد معنى الثقة والطمأنينة التي

حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟

قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما : أنّ من وُجد من الإيمان ربما اعترضه الشيطان . أو بعض المضلين فشككه وقذف في قلبه ما يضعف يقينه ، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ويقع به على الريب ، ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب لنفسه مخرجاً ، فوصف المؤمن الكامل حقاً بالبعد عن هذه الموبقات .

الثاني : أن اليقين وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان وأساسه، أفرده بالذكر بعد تقدم الإيمان ؛ تنبيهاً على مكانه وتدليلاً على أهميته .

وعطف على الإيمان بكلمة التراخي وهي (ثم) إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّاً جديداً .

ومعنى الآية :

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي المؤمنون الكُمّل ﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) فلم يشكوا ولم يتزلزلوا ؛ بل تثبتوا على حال واحدة ، وهي التصديق الخالص ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة التي يتلفظ بها اللسان دون أن يعيها الجنان .

وإنما هنا تفيد القصر والتخصيص ، أي : أن الآية تخص المؤمنين الكاملين بهذه الأوصاف من الإيمان بالله ورسوله ، وعدم الشك فيما أنزل من القرآن ، وفيما يقول الرسول وما يفعل ، والجهاد بالمال والنفس ، من يفعل ذلك فهو المؤمن الكامل الإيمان حقاً ، أما من يحيد عن ذلك ويبتعد عنه ولا يفعله، فليست فيه صفة الإيمان الكامل . فقد أثبت للمؤمن هذه

الصفات ، ومن تنتفي عنه هذه الصفات فليس بمؤمن الإيمان الكامل .

والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان ، الـذين صدقـوا الله ورسوله ، فأقروا لله بالوحـدانية ، ولـرسولـه بالـرسالـة ، عن يقين راسخ ، وإيمـان كـامـل ، ثم لم يشكّوا ، ولم يضعفـوا في إيمـانهم ؛ بـل ثبتـوا على التصديق واليقين ، وبذلـوا أموالهم وأرواحهم في سبيـل الله وابتغاء رضـوانه ، أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان .

ويتضـح من ذلـك أن الله تعـالى وصف المؤمنين الكـاملين بثـلاثـة أوصاف :

الأول : التصديق الجازم بالله ورسوله .

الثاني : عدم الشك والارتياب .

الثالث : الجهاد بالمال والنفس .

فمن كان على هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِـدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ واللَّهُ بِكلِّ شيءٍ عَليم ﴾ الحجرات الآية ١٦ .

﴿ أتعلّمون ﴾ مضعّف عَلِم بمعنى شعر ، أي أتشعرونه بمـا أنتم عليه ، وهل تخبرونه بما في ضمائركم ، والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ولا يخفى عليه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلـك ولا أكبر إلا هـو يعلمهـا ، ويختم الآية بقـوله ﴿ والله بكـل شيء عليم ﴾ فمقدمـة الآية تستدعي خاتمتها .

فالاستفهام هنا للإنكار والتوبيـخ ، فالله ينكـر عليهم أن يخبروه بمـا في ضمائرهم وقلوبهم ؛ لأنه محيط بما في الضمـائروالقلوب ، وإن لم يخبـروه بما

فيها ، فلا يخفى عليه شيء مهما عظم أو دقّ ، فالله واسع العلم رقيب على كل شيء .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكمْ للإيمانِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقين ﴾الحجرات الآية ١٧ .

﴿إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ غيْبَ السَّمَـواتِ والأرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ الحجرات الآية ١٨ .

وسبب نزوله قوله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . . . . ﴾ أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله ، أسلمنا ولم نقاتلك ، وقاتلك بنو فلان ، فأنزلها الله .

وفي رواية أخرى : قدم نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ سنة تسع ، وفيهم طليحة بن خويلد ، ورسول الله جالس في المسجد مع أصحابه ، فسلموا ، وقال متكلمهم : يا رسول الله : إنّا شهدنا ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ، ولم تبعث إلينا ، ونحن لمن وراءنا سلم ، فأنزل الله الآية . . . .

« منّ عليه بيد » أي أسداها إليه وأنعم عليه .

والمنّة : النعمة التي تعطى دون طلب لردها ممن بذلها إليه . واشتقت من « المنّ » الذي هو القطع ؛ لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة .

فما حدث من هؤلاء الأعراب سماه الله إسلاماً ، ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً ، فلما منّوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدّون عليك بشيء لا يحق الاعتداد به ، وهو الذي يحقّ أن يسمى إسلاماً ، وأن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدّوا عليّ إسلامكم ، الذي يسمى إسلاماً عندي لا إيماناً .

ثم قال : بل الله يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم انكم وفقتم إليه ، إن صح زعمّكم وصدقت دعواكم ، إلا أنكم تزعمون وتدّعون ما الله عليم بخلافه .

ونلاحظ هنا إضافة « الإسلام » إلى الأعراب ، أمّا كلمة الإيمان فقد جاءت مجرورة دون إضافة ، وهذا ما لا يخفى على المتأمل بأن الإسلام تلفظت به أفواههم ، فانتسبوا إليه ، أما الإيمان فلم يعمر قلوبهم ، فجردهم منه .

﴿ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾ ذكر إنْ الشرطية وفعل الشرط ، أما الجواب فمحذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير . إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان فلله المنّة والفضل عليكم .

وقرىء : « إذ هداكم » و« إن هداكم » بكسر الهمزة بدلاً من « أن هداكم » .

﴿ إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأرضِ وَالَّلهُ بَصيرٌ بما تَعْمَلُون ﴾ يعني أن الله عز وجل يعلم كل مستتر وخفي في الكون ، ويبصر كل عمل تقدمون عليه سواء في سركم أم في جهركم ، خفية أم علانية ، ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف .

يقول الرسول ﷺ للأنصار يوم حنين : « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ وكلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ .

والمعنى : انهم يا محمد يعدّون إسلامهم عليك منّة يستوجبون عليها الحمد والثناء ، فقل لهم لا تمتنّوا عليّ بإسلامكم ، فإن نفع ذلك عائد

عليكم ؛ بل لله المنّة العظمى عليكم ، بالهداية للإيمان ، والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان .

فالله يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ، وهو مطّلع على أعمال العباد لا تخفى عليه خافية ، صغيرة أو كبيرة ، في السّر والعلن ، في الظاهر والباطن .

المراجع

١ ـ **الإتقان في علوم القرآن** ـ السيوطي ـ ط ٢ .

٢ ـ **أثر النحاة في البحث البلاغي** ـ عبد القادر حسين ـ ط ٢ .

٣ ـ **أحكام القرآن** ـ ابن عربي ـ عيسى الحلبي .

٤ ـ **الإشارة إلى الإيجاز** ـ عز الدين بن عبد السلام ـ المدينة المنورة .

٥ ـ **الإعجاز العددي للقرآن** ـ عبد الرازق نوفل ـ الشعب .

٦ ـ **إعراب القرآن** ـ الزجاج ـ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة .

٧ ـ **أمالي المرتضى** ـ الشريف المرتضى ـ عيسى الحلبي .

٨ ـ **الإمتاع والمؤانسة** ـ أبو حيان التوحيدي ـ بيروت .

٩ ـ **البرهان في علوم القرآن** ـ الزركشي ـ عيسى الحلبي .

١٠ ـ **بصائر ذوي التمييز** ـ الفيروز آبادي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١١ ـ **البيان والتبيين** ـ الجاحظ ـ الخانجي .

١٢ ـ **تأويل مشكل القرآن** ـ ابن قتيبة ـ عيسى الحلبي .

١٥ ـ **تفسير الألوسي (روح المعاني)** ـ الألوسي ـ المنيرية .

١٥ ـ **تفسير البحر المحيط** ـ أبو حيان ـ السعادة .

١٦ ـ **تفسير غريب القرآن** ـ ابن قتيبة ـ عيسى الحلبي .

١٧ ـ **تفسير الفخر الرازي** (مفاتيح الغيب) ـ الفخر الرازي ـ ط ١ .
١٨ ـ **تفسير القرطبي** (الجامع لأحكام القرآن) ـ القرطبي ـ الشعب .
١٩ ـ **تفسير الكشاف** ـ الزمخشري ـ الاستقامة .
٢٠ ـ **تفسير النيسابوي** ـ النيسابوري ـ بولاق .
٢١ ـ **زهر الآداب** ـ الحصري ـ عيسى الحلبي .
٢٢ ـ **شرح الكافية** ـ الرضى ـ ط ١ .
٢٣ ـ **الصاحبي** ـ ابن فارس ـ ط ١ .
٢٤ ـ **الطراز** ـ العلوي ـ المقتطف .
٢٥ ـ **عقود الجماعة** ـ السيوطي ـ ط ١ .
٢٦ ـ **القضاء والقدر** ـ الشعراوي ـ دار الشروق .
٢٧ ـ **مجاز القرآن** ـ أبو عبيدة ـ الخانجي .
٢٨ ـ **المحتسب** ـ ابن جني ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٩ ـ **مختصر ابن كثير** ـ الصابوني ـ بيروت .
٣٠ ـ **محمد والشعر** ـ جودة مصطفى ـ بيروت .
٣٠ ـ **المدخل إلى دراسة القرآن** ـ أبو شهبة ـ السعادة .
٣١ ـ **معاني القرآن** ـ الفراء ـ دار الكتب .
٣٢ ـ **معترك الأقران** ـ السيوطي ـ دار الفكر العربي .
٣٣ ـ **المعقول واللامعقول** ـ زكي نجيب محمود ـ دار الشروق .
٣٤ ـ **الملل والنحل** ـ الشهرستاني ـ ليبزج .
٣٥ ـ **من بلاغة القرآن** ـ أحمد بدوي ـ نهضة مصر ٣ .
٣٦ ـ **نكت الانتصار** ـ الباقلاني ـ الاسكندرية .

فهرس الموضوعات

البـاب الثاني

البـاب الثالث